



Columbia University
in the City of New York

THE LIBRARIES



أعلام الإسلام

قاسم أمين

أحمد زحاکي



دائرة المعارف الإسلامية

893.7112

K526

45-39141

PT 20-20076 Halaby

مكتبة ترجمة دائرة المعارف الإسلامية

17/7/45

اعلام الاسلام

(C)

343

قاسم أمين

أحمد خاكي

مكتبة الطبع والنشر
دار إحياء الكتب العربية
عيسى البابي الحلبي وشركاه

COLUMBIA
UNIVERSITY
LIBRARY

سيرة

كان يتوقّد في عينيه الذكاء، وكان وسيا، له شاربان غزيان، ورأس كبير يزينه شعر أسود يصفّه على جبينه صفا.

إذا عددت سني حياته جميعا وجدتها خمسة وأربعين عاما لا أقل ولا أكثر: حياة قصيرة، لم يبلغ عنفوان الرجولة حتى قضى عليه. كان قد اكتمل عقله وبرزت في كل ناحية مواهبه، ورأى خيال الجامعة المصرية يبدو له من وراء سحج المستقبل. كاد يحقق أملا كبيرا من آمال نفسه الكبيرة، لكنه قضى ولم يبلغ تلك الغاية العزيزة من غايات نفسه الطموح. كان صديقا للجميع: آمن بالصدقة. ومات يبكيه الجميع كما يبكي الصديق الأصدقاء. كان حيا عطوفا خيرا، لم تؤخذ عليه ريبة في خلق ولا في دين. ضرب مثلا لمكارم الأخلاق فترقّق مع الجهلة وأنصاف المتعلمين، وضرب مثلا آخر لشجاعة النفس والجهاد والدفاع عن الفكرة تأثر به الناشئون من رجال هذا الجيل.

كان صديقا للمرأة كما كان صديقا للرجل ، وكان يعشق الحرية للمرأة والرجل على السواء ، ودافع عن الحرية في جميع مظاهرها : حرية القول ، وحرية الفعل وحرية العقيدة .

ثم كان أول من دعا إلى إصلاح المرأة لتصلح العائلة والأمة ، وكان في دعوته مصححا اجتماعيا توفرت له أخلاق المصلحين في سائر أمم الأرض .
ذلك هو قاسم أمين !

ولد في أول ديسمبر سنة ١٨٦٣ ببلدة طره من ضواحي القاهرة حيث كان يقيم أبوه الأمير الای محمد بك أمين في عسكر مرابط هناك . ولمحمد أمين بك تاريخ لا يخلو من الحوادث . فهو من أسرة تركية ولى بعض أفرادها السلیمانية من أعمال العراق . وظلت الأسرة ردحا من الزمن تقوم بهذه الولاية حتى ظنّ أنها كردية . ونشأ محمد بك في السلیمانية ومات والداه وهو ما يزال طفلا فكفله خاله وجدته لأمه . وبلغ وهو في كنف خاله وحضانة جدته الخامسة عشرة . لكن ابن عمه الوالى كان قد عُزل واستقر رأيه أن يرحل إلى الآستانة فخرج محمد الفتى في ركاب الوالى المعزول .

واستقر به المقام في الآستانة فترة من الزمان نشأ فيها بينه وبين ابن عمه الوالى السابق خلاف فرّق بينهما . وعاش وحيدا في قلب المدينة الكبيرة حتى رأى أن يرحل منها إلى مصر . وسافر من الآستانة على ظهر سفينة

شراعية ، ودخل مصر فاختلط ببعض أبناء الترك الذين أدخلوه المدرسة الحربية . ونشأ بعد ذلك نشأة عسكرية .

أما قاسم نفسه فقد مال عن هذه النشأة العسكرية إلى النشأة القانونية التي تدرج فيها . ولكن لعله ورث عن أبيه حب النضال والتمسك بالرأى . أرايت كيف استطاع أن يمتطى أبوه البحر على ظهر سفينة شراعية مهاجرا من بلد إلى بلد ؟

وتعلم قاسم في مدرسة الاسكندرية الابتدائية ثم بالمدرسة التجهيزية بالقاهرة (الخديوية الآن) وانتقل من تعليمه التجهيزى إلى مدرسة الحقوق والإدارة فنال شهادتها في ٢٤ من أكتوبر سنة ١٨٨١ ، وسافر في بعثة إلى فرنسا في صيف ذلك العام . وأتم دراسته بكلية الحقوق في مونبيليه وعاد إلى مصر في ٢٥ أغسطس سنة ١٨٨٥ .

ولنا عند كل واحد من هذه التواريخ تعليق ينبغى أن نجمله لك ! فقد قيل إن قاسما في نشأته المدرسية لم يكن من المتفوقين في الدراسة . ونقل المرحوم الهلباوى بك عن أحد زملائه في الدراسة « أنه لم يكن بين الأوائل في دراسته اللهم إلا في السنة الأخيرة التي نال فيها شهادة الليسانس في سنة ١٨٨١ فقد كان في امتحان الليسانس أول الناجحين » .

وقيل لطلعت باشا — وهو الذى نقل عنه الهلباوى بك — « إن خاصة
الذين عرفوا قاسما بنبوغه وفرط ذكائه كانوا يظنون أنه كان دائما فى أوائل
زملائه فى الامتحان . فقال : نعم ! ولكنه ألف فى صغره أن يوزع جهوده
بين دروسه وبين قراءة كتب الأدب الفرنسى والتاريخ فكان يحصل ضعف
ما يحصله زملاءه فى الدرس وفى المعارف العامة » وعلق على ذلك الهلباوى بك
فقال « وقدبقى شأنه لا يكتفى بعمل واحد فى الحياة . بل يجمع بين
الأعمال والدراسات الشتى حتى كان فى القضاء قاضيا ، ومؤلفا بالفرنسية
والعربية ، ومحررا للمرأة ، ودائب البحث فى الشريعة الإسلامية ، ومنشئا
للجامعة ، ومؤسسا للجمعية الخيرية الإسلامية وغير ذلك من جلائل الأعمال »
نعم إن هذا يفسر لنا جانبا من نشأة قاسم أمين . فإنه لم يتلق العلم
المدرسى كأنه أول العلم ومنتهاه . ولم يجلس إلى أساتذته ليتلقى منهم هذه
المناهج التى نعدّها والتى يستظهرها طلبة العلم ويقتصرون عليها . بل لقد كان
يرى أن الدراسة يجب أن تكون حرة . لذلك لم يقتصر على مناهج الدراسة
كما يقتصر غيره ، وإنما أضاف إلى ذلك بحوثه الشخصية . وقد تناولت بحوثه
الشخصية القانون والشريعة والتاريخ والاجتماع والأدب . حتى إذا ما أوفت
سنو دراسته على الانتهاء جدّ فى الدرس فكان فى طليعة الحاصلين على
إجازة الحقوق .

فقسام أمين إذن كان متعدد النواحي منذ أن كان ناشئاً يتلقى العلم .
ولولا تعدد نواحيه لما ذكر اليوم بين زعماء الفكر في مصر . لو أنه اقتصر
على دراسة القانون لما ذكر اليوم إلا كما نذكر المغمورين ممن ولوا القضاء ثم
ماتوا ولم يتركوا من الآثار إلا بالقدر الذي سمحت لهم به الوظيفة . لكنه كان
ناشئاً طموحاً ذلك الذي قرأ لنفسه قبل أن يقرأ للامتحان، ودرس ليُرضى عقله
وفكره قبل أن يرضى أساتذته وأولياءه . ولا بد أنه كان يحس بتلك المتعة
النفسية التي يحس بها المتشوقون للعلم والمتشوقون للبحث والدراسة . فقد ظل
حياته دائب البحث: يقرأ ثم يقرأ . وكان اطلاعه منظماً لأنه كوّن عنده ثقافة
ظهرت آثارها في الكتابة والخطابة ثم في العمل .

ثم لقد نشأ في أخريات عصر إسماعيل وأول عصر توفيق . وكان كل
وجه من وجوه الحياة العامة في هذا العصر يدعو إلى التفتن والتفكير .
لقد كانت مصر خلال القرن التاسع عشر تحاول أن تبلغ من نفسها ما أدركته
أوروبا . كانت هذه سياسة محمد علي وكانت سياسة أكثر الذين جاءوا بعده
من حكام مصر وبخاصة إسماعيل . وعلى هذا الأساس ذهبت بعوث إلى
أوروبا، وعلى هذا الأساس أيضاً ذهب قاسم أمين، فهو إذن أحد الذين جمعوا
بين ثقافة الشرق وثقافة الغرب في هذه الفترة من حياتنا القومية .

وقضى قاسم أمين أربع سنوات في فرنسا يدرس القانون ، لكنه كان يتشبع بالثقافة الفرنسية ما شاء . لم تقتصر قراءاته في هذه المرة أيضا على ما تستلزمه دراسة القانون ولا على ما تتطلبه الإجازة التي تغرب من أجل الحصول عليها . وإنما قرأ الأدب الفرنسي بفهم وقرأ آثار الفكر الفرنسي بإسراف . ثم هو بعد ذلك تقلب في أنحاء فرنسا وفتح ناظريه ليرقب كل ظواهر المدينة التي حوله . فلم يعد إلى مصر إلا وكانت له خبرة بكل ما يعتمور الحياة الفرنسية في ظاهرها وباطنها .

« وعند عودة قاسم أمين من أوروبا اشتغل مساعدا للنيابة المختلطة في أول ديسمبر سنة ١٨٨٥ ثم دخل إلى قسم قضايا الحكومة في ٢٢ سبتمبر سنة ١٨٨٧ . وكان معظم موظفي أقلام قضايا الحكومة من الأجانب فأدخل قاسم وفتحى زغلول بعد ذلك ومصطفى فتحى في أقلام القضايا في أوقات متقاربة » .

ويعلق على ذلك المرحوم الهلباوى بك مرة أخرى فيقول :

« وقد تعرفت بقاسم في إبان وظيفته تلك . فقد كنت أترافع أمام محكمة فيها في قضية ضد الحكومة التي كان يمثلها هو » .

« وكنت أتوقع -وقاسم خصمى في هذه القضية- أن يشعر أحدنا بشيء

من الوحشة لاختلاف الجهة التي تخرج كل منها (الأزهر والمدارس الأوروبية) ولكنني إذ سمعته يترافع ويدلى بحجته لمصلحة الحكومة ضد موكلتي شعرت بقلبي يدق إعجابا بحسن أسلوب هذا الخصم وحسن تقديره وعظيم كفايته . فاتصلت أرواحنا من تلك الساعة وقامت بيننا صداقة كأنها ترجع إلى عهد الطفولة » .

وارتقى في سلك النيابة حتى كان رئيس نيابة بني سويف في يونيه سنة ١٨٨٩ . وكان أول عمل قام به حين ولى هذا المنصب أن أطلق سراح كثير من المتهمين الذين سجنتهم الإدارة عدوانا . وبقي سنتين في بني سويف انتقل بعدها في نفس المنصب إلى طنطا .

« وفي طنطا ذاعت بعض مواهبه حتى وصلت إلى الرجل الوحيد من العربيين المحكوم عليه بالإعدام (وهو عبد الله النديم) ، وقد كان محتفيا بمديرية الغربية من سبتمبر سنة ١٨٨٢ تاريخ دخول الانجليز مصر . فقدم نفسه لقاسم ليتصرف في الأمر بما تقتضيه حكيمته . فقام له من كرسية وسافر معه إلى القاهرة ليلتمس له العفو عنه اكتفاء بما ذاقه مدة السنوات التسع التي اختفأها . وكان المرحوم رياض باشا رئيس الوزراء ووزير الداخلية فعمل معه لهذه الغاية ، ولم يرجع قاسم لطنطا إلا بعد أن صدر العفو عن عبد الله النديم » .

وفي ٢٦ يونيه سنة ١٨٩٢ عُيِّن قاسم أمين وسعد زغلول ويحيى ابراهيم نواب قضاة بمحكمة الاستئناف بأمر واحد . ولم يحل حولان حتى كان قاسم وسعد مستشارين بمحكمة الاستئناف وحتى ارتفع مرتبهما إلى ألف جنيه في العام .

وكذلك ترى أنه بلغ في الحادية والثلاثين ما لم يبلغه إلا الأقلون من رجال القضاء في الخمسين . أليس في هذا دليل على ذكاء خارق امتاز به قاسم أمين حين ولي القضاء بين الناس ؟
ثم قضى الأربعة عشر عاما الباقية من حياته وهو مستشار .

تلك بعض التواريخ . أردنا أن نذكرها قبل أن نبحث حياة هذا المصلح الكبير حتى نتثبت منها في خلال حديثنا عن أفكاره وآرائه ومذاهبه . لكن في حياته تواريخ أخرى لا تتصل بوظيفته ولكن تتصل بحياته العامة ، وهي أكثر ما نغني به في هذا الكتاب .

في سنة ١٨٩٤ دخل قاسم في غمار الحياة العامة حين تولى الرد على الدوق داركور . وقد كان هذا الكاتب الفرنسي من أكبر من أثر في حياة قاسم أمين ، لا لأنه أراد تعليمه شيئا فعلمه ، ولكن لأنه كتب كتابا بالفرنسية ينقد المسامين والمصريين فتصدى للرد عليه قاسم أمين . وتعلم قاسم أمين من

هذا النقاش لأنه اضطر أن يبحث وأن يدقق البحث : وأن يقرأ كثيرا في كتب الفقه والتشريع الإسلامى حتى يقرع الحجة بالحجة والبرهان بالبرهان. وكان عليه بعد ذلك أن يوضح أفكاره ويحددها، وكان عليه أن يعبر عن آماله التى تكونت فى خافية نفسه منذ أن كان ناشئا يتقلب فى أنحاء مصر وفرنسا .

وبعد سنة ١٨٩٤ اتجه قاسم أمين اتجاها عاما فقد ظل أربع سنوات أخرى يفكر فيما كتبه ردا على الدوق داركور . ولعبت بعقله أفكار أخرى كان يختزنها ويخشى أن يبوح بها . وما لبثت هذه الأفكار أن حلت فى نفسه محل الإيمان الوطيد ؛ فكتب مقالات فى « المؤيد » ظهرت تباعا من غير اسمه وحاول فيها أن يردف كل سبب من أسباب التدهور الاجتماعى فى مصر بالمظاهر التى يراها . وقد سُمى هذه المقالات « أسباب ونتائج » وعرض فيها كثيرا من نواحي النقد فى المجتمع المصرى . عرض فيها لأسس التربية فى مصر ، وتحدث عن المال ، وتكلم عن المرأة — ولأنه ترقق فى ذلك ترفقا شديدا — ثم كتب مقالات أخرى سماها « حكم ومواعظ » وصف فيها الموظف المصرى أبلغ وصف ، وتعرض لما يجب أن تكون عليه الوظيفة من الكفاية والمقدرة ، وتأثر العلاقة بين الوظيفة وبين الوطنية .

ثم كتب « تحرير المرأة » الذى أودعه رأيه فى إصلاح المجتمع فى مصر

بوجه عام ورسم فيه الدستور الذى آمن به لإصلاح المرأة حتى يصلح هذا المجتمع . وعرض فى كتابه للتربية بوجه عام ، وتعرض للبحث فى الحجاب وتعدد الزوجات والطلاق . وخرج على الناس بهذا جميعه ، فأحدث ثورة فى الأفكار كانت فى نفسها رشيدة . لأنها بعثت أهل الدين على التفكير ، ولأنها بعثت الشباب على العمل ، ولأنها بعثت الشيوخ على التدبير ، ولأنها بعثت الجميع على الإصلاح .

واستمع مرة أخرى إلى تعليق الهلباوى بك على كل ذلك إذ يقول :
 « وردّه على الدوق داركور بشأن المرأة المسالمة أمر يستحق الالتفات ، فهو وإن كان يقوم على مشكلة اجتماعية ، فالبحث يرجع إلى مسائل دينية إسلامية محضة . ونحن قد تعلمنا أن الذين يضيفون إلى تربيتهم المصرية تربية أوروبية يعودون إلينا أقل عناية بالمسائل الدينية . فاشتغال قاسم بهذا الموضوع يدل على أن شخصيته المصرية الإسلامية لا تزال عنده مرتبطة بعزته القومية وشرف وطنه .

« بحثه فى هذه الرسالة جرّه إلى البحث فى مسألة المرأة المسالمة . ولقد كانت حاجة مصر فى ذلك العصر إلى تحرير المرأة وتعليمها مسألة المسائل . وعمل قاسم فى تحرير المرأة سيضعه فى التاريخ موضع (العلم الأول) ؛ فإن

إليه وحده في هذه الأمة فضل هذه المحاولة التي توجت بعد عشرين سنة من جهاده بالنجاح التام الذي نشهده اليوم .

« كان مذهب قاسم في تحرير المرأة من أشد المذاهب بغضا واستحقاقا للمحاربة عند كل الذين يستقون أفكارهم من رجال الدين . وكان قاسم يقابل هذه الحملات بما عنده من الشجاعة الهائلة والاستخفاف بالأذى . ولم يكن يدخر مجهودا للدفاع عن عقيدته والذين لم يتصلوا بحوادث ذلك الزمن لا يدركون خطورة ما يلحق بمن كان في مركزه من العنف والاضطهاد . »

ثم مضت على تحرير المرأة سنتان ردّ فيهما عليه كثيرون ممن أحسنوا الرد وكثيرون آخرون ممن أساءوا فهمه . لكنه كان كلما تناقش في عقائده ازداد بها تمسكا ورأى أنه من الكرامة ألا يضعف ولا يهن . بل لقد رأى من الكرامة أن يكتب كتابا آخر يؤيد به كتابه الأول ويزيد فيه الحديث عن المرأة وعما بلغت المرأة الأمريكية الحرة بوجه خاص . لذلك كتب « المرأة الجديدة » في سنة ١٩٠٠ وأهداه لأعز أصدقائه إليه وهو سعد زغلول .

في ست سنوات أخرج قاسم أمين ثلاث كتب أولها بالفرنسية وثانيها وثالثها بالعربية ، وكلها تدور حول الجماعة المصرية والدين الإسلامي . لكنها تظهر لك تطورا غريبا في الأفكار . فهو في أولها يعتبر لك عن آماله في أن

تحيا أمته على الرغم من النقائص التي تطالع الباحث ، وهو يرى أن هذه النقائص تتمثل في الاستعباد الذي ضرب في أصول الحياة المصرية منذ بضعة قرون . ثم هو في ثاني كتبه يدافع عن تحرير المرأة حتى يبلغ بذلك تحرير الرجل ، لأنه يعلم أن المرأة هي الأسرة ، وأن الأسرة هي التي تُخرج رجالا أحرارا أو غير أحرار . وهو يكتفي بأن يرد المرأة إلى الحجاب الشرعى . فهو في كتابه الثاني يمثل وجهة النظر التي اتخذها الكثير من فقهاء المسلمين ، وهو يؤيد تحرير المرأة بآيات من الذكر الحكيم وبوقائع من تاريخ الإسلام . على أنه في ثالث كتبه لا يريد تعليم المرأة فحسب ، ولا تحريرها فحسب ، بل هو يريد لها عاملة تقوم بما يقوم به الرجل ، ويؤيد ذلك بما قرأه عن المرأة في أمريكا وأوروبا . وكأنا تدرجت هذه الفكرة عنده . فهي قد بدأت متواضعة لا ينبغي من ورائها إلا ردّ حقوق المرأة المسلوبة لكنه انتهى بها في كتابه « المرأة الجديدة » إلى المطالبة بكل الحقوق التي طالبت بها المرأة الأوروبية حتى آخر القرن التاسع عشر ولم تظفر بها إلا بعد الحرب العالمية الأولى .

اشتهر قاسم أمين بالتحدث عن المرأة والبحث في شؤونها حتى لقد أصبح اسمه مقترنا بالإصلاح الذي نال مركزها في السنين الثلاثين الأخيرة . لكنه

لم يقف عند حد المرأة فحسب بل لقد كان ذلك كما أسلفنا مقدمة لإصلاح المجتمع المصرى بوجه عام . وقد اتجه قاسم إلى نواح أخرى من الإصلاح تحدث عنها وبحث فيها وكتب وخطب وتكلمت أعماله هناك بالنجاح .

أما أجل أعماله بعد سنة ١٩٠٠ فعملان . أولهما تأسيسه « الجمعية الخيرية الإسلامية » وثانيهما اشتراكه فى تأسيس « الجامعة المصرية » سنة ١٩٠٦ . وأول العاملين جليل لأنه كان أول تجربة قام بها المصريون فى سبيل تنظيم البر والإحسان ، أما ثانيهما فهو أول مجهود لتحرير العلم من الحدود والقيود . وقد كان قاسم أمين من بين الأعضاء الأوائل الذين وجهوا الجمعية الخيرية فى سبيل البر . وكان ثانى اثنين رأسا الجماعة التى فكرت فى الجامعة المصرية وخرجت بالمشروع من حيّز القول إلى حيّز العمل : أما ثانيهما فهو سعد زغلول . لكنه مات قبل أن يتم المشروع : مات قبل أن تفتتح الجامعة المصرية بثلاثة شهور .

وفى ليلة الثالث والعشرين من شهر إبريل سنة ١٩٠٨ مات قاسم أمين بعد أن ألقى خطابا فى نادى المدارس العليا ترحيبا بطالبات رومانيات . فإذا أنت تبصّرت فى هذا التاريخ القصير الذى عرضته عليك رأيت أية حياة

حافلة كان يبشّر بها ذلك المصلح العظيم . كانت قبسا من حياة . لكنها
كانت قبسا أضواء السبيل لمن تلاه ممن شغفوا حبا بالإصلاح . وأنت تبحث في
حياة المصريين الذين عاشوا في عصره والذين ندين لهم بحسن التفكير وحسن
الإرشاد ، فتراهم بينهم فذا . لقد عاش الكثير منهم للإصلاح السياسى
أو للإصلاح الدينى ، لكن " هذا الذى نتحرّى سيرته الآن كان يعيش
للاصلاح الاجتماعى .

شخصية

نشأ فاسم أمين في بيت من بيوت الطبقة الوسطى فتحلى بما يتحلى به أبناء هذه الطبقة من حرص على دستور خلقى خاص . فأبناء الطبقة الوسطى دائماً هم الذين لم يسفوا إلى درك الطبقة الدنيا حيث تعيش الرذيلة غصبا ، ولم يعلوا إلى مستوى الطبقة العليا حيث يدفع الشباب والفراغ والمال إلى ارتكاب الرذيلة . بل لقد عاش في بيت تسيطر عليه مكارم الأخلاق من حيث الصدق والإخلاص والأمانة ، وصلة الغنى للفقير ، وتراحم الكبير والصغير . كل هذه —وهى أسس الخلق العام— هى الفضائل التى يتربى عليها أبناء الطبقة الوسطى ، وقد تربى عليها قاسم أمين .

وقد أجمع الذين عرفوه أنه كان حميماً . وشيمه الحياء التى طُبِعَ عليها قد لازمته فى حياته الخاصة . ولكن الجرأة ، أو قل الشجاعة الأدبية كانت

أكبر ما يميز خلقه العام . ولقد تجد أشد الناس حياءً هم في نفس الوقت أكثرهم تحدياً وأشدّهم شجاعة قلب . ذلك أنه إذا أحسّ فرد بأنه حيّ فإنه يحاول جهده أن يعالج ذلك الحياء . وهو في معالجته حياءه يستطيع أن يملك نفسه ويستطيع بعد ذلك أن ينسى حياءه في سبيل المبدأ الذي اعتنق أو الفكرة التي يدافع عنها . لذلك قد تبحث حياة كثير من المصلحين فيروعك من بعضهم أنه حيّ عطوف في حياته الخاصة ، وأنه شجاع جريء في حياته العامة . ومثل هذا يظهر لنا في حياة قاسم أمين .

على أنه بلغ من الاعتداد بالنفس مبلغاً بعيداً ، وقد أسلفنا أنه ربما رجع ذلك إلى طبيعة ورثها عن أبيه . وقد رأيت كيف كان أبوه معتزاً بنفسه وكيف اختلف مع رب عائلته في الآستانة وكيف هجرها إلى مصر على ظهر سفينة شراعية صغيرة . وحياة قاسم أمين فيها كثير مما يدلّك على اعتداده بالنفس . وعلى أنه كان عنيداً لا يلين ولا يهين في سبيل المبدأ الذي اعتنق أو الرأي الذي رأى . وقد ذكر الهلباوى بك مثلاً لذلك فقصّ رحمه الله القصة التالية .

« عرض رأى في الجمعية الخيرية الإسلامية لوقف كل ما تملك على الوجوه الخاصة بأغراض الجمعية . ولما كان قاسم يرى أن الوقف كثيراً ما يعطل

على أصحاب الشأن فيه التصرف بما تقتضى الحاجة والظروف التي لا يمكن الإحاطة بها عارض معارضة شديدة .. وكانت الأغلبية ترى غير ذلك فبقى قاسم مُصرّاً على رأيه قائلاً : إن هذه المسألة من المسائل الأساسية التي لا يمكن أن أخضع فيها لحكم الأغلبية . بل واجبي في هذه الحالة يقضى على بالاستقالة من خدمتها . فتراجع الجميع وساموا برأيه . ولقد مات قاسم ووقينا خطر استقالته وبقيت الجمعية من سنة ١٩٠٨ ولم يفكر أحد من أعضائها إلى اليوم في الخروج عن رأيه . »

مثل هذا الاعتداد بالنفس ، أو قل مثل هذا التمسك بالرأي ، كان أساسياً في حياة مصلح مثل قاسم . ذلك بأن لكل مصلح رأياً يزود عنه : يحسبه الناس من حوله غريباً أو ضاراً أو غير ملائم . لكن المصلح ذو خيال واسع فهو يرى الصواب كل الصواب في الرأي الذي ارتآه . ولولا شجاعة النفس أو قل الصلابة أو قل العناد لما استطاع مصلح أن يخرج باصلاحه من عالم الغيب إلى عالم الشهادة .

ونفس قاسم أمين كانت نفس أديب . والأديب يحس بما لا يحس به الآخرون ويشعر بخطر دقيقة لا يشعر بها الآخرون . فهو من أول المصريين الذين أحبوا فن الغناء ، ومن أول الشرقيين الذين تحدثوا عن وشائج الرحمة

والحب بين الرجل والمرأة . ثم هو من أول الناس الذين استكشفوا الغرائز واستطاعوا أن يفهموا كثيرا من الدوافع الخفية التي يصدر منها سلوك الإنسان . وقد أعانتته نفسيته الأدبية على أن يلحظ من الناس دقائق أمورهم وعلى أن يفسر تناقضهم بين القول وبين العمل ، وأن يدرك المعاذير التي يخلقونها . فهو يعلم تماما لم يتزوج رجل من أربع نساء ، ولم يتخذ رجل آخر بعض الجوارى ، ولم يتحدث الموظف المنافق عن حاجة الدولة إلى الإصلاح ، ولم يحاول رجل الدين أن يدخل الهوى في تفسير آيات الدين ؟ ولأنه أدرك هذا النفاق ، ولأنه علم أن بين الفعل وبين القول هوة سحيقة ، فقد حاول أن يرد كل شيء إلى أصوله الأولى ، وحاول أن يفسر كل فعل بكفائه من الغرض أو اللذة أو الهوى .

ونفسيته الأدبية أيضا هي التي طوعت له أن يتأثر بالأوساط التي جال فيها . تأثر بخير ما كان في الوسط المصري فأشرب روح الإسلام منذ أن كان ناشئا . وتأثر بالوطنية المصرية الشابة ، فكان وطنيا من طراز خاص . وتأثر بدراسته الفرنسية فأمن بما كان يتدفع في الوسط الفرنسي من أفكار الحرية والتقدم ، وتأثر بالحضارة المادية في أوروبا فدعا إلى اتباع خطاها . لقد تأثر بكل هذه العوامل وأنتجت كل هذه العوامل هذه الشخصية التي جمعت بين خير ما أنتجه الشرق وبين خير ما أنتجه الغرب . لكنه لم يكن له أن

يتأثر بكل ذلك إلا إذا كان له ذلك الإحساس المتوقّر الذى يميّز الأدباء .

لقد ذهب الدكتور هيكل باشا فى حديثه عن قاسم أمين إلى أنه كان صاحب مزاج عصبي ينفعل للجليل والقليل من الأمور وشبه أعصابه « بأوتار تتأثر بلامسة الحوادث تأثراً سريعاً ينقل إلى نفسه الإحساسات المختلفة ، وينقل إلى الخارج مظاهر هذه الإحساسات على النظام الذى تعطىها إياه قوة ملاحظته الحادة الدقيقة » وكانت هذه الأعصاب تتوتر فى كل حادث من الحوادث أو كل واقعة من الوقائع التى تُتمثل أمامه . فإذا هو توترت أعصابه أمام تكرّر المشاهد والمناظر وأمام جمود المحيطين به دون التأثر بما يراه هو ويلاحظه ، ترك الناس إلى وحدته آملاً أن يجد فيها من الطمأنينة والسكون ما يردّ إليه هدأته ، وكذلك تبقى هاته الحال العصبية تتناوبه حتى تدفعه ليكتب أجمل ما فى كتابيه « تحرير المرأة » و « المرأة الجديدة » وليحفظ فى أوراقه الخاصة بعض كلمات بدیعة أظهرتها الظروف بعد وفاته .

وهذا الذى كتبه الكاتب الكبير هيكل باشا يصوّر هذه النفس الحسنة . فهو إذ يجول فى محيطه المصرى ينفعل لآثار الوسط المصرى ، فيرى وهو صبي يافع أسوأ ما تقع عليه أعين الصبيان فى حفلات العرس ، ويألم حين يرى عصا الفقيه تهوى على ظهور الأولاد فى الكتاتيب ، ثم هو يذهب إلى

فرنسا فيروعه هذا البناء السامق الذى يطالعه فى باريس ، وهو يلحظ الشعور القومى عند الفرنسيين فيلتهب له إحساسه . وهو يزور متحف اللوفر فتتوفر كل عواطفه ، وهو يترد إلى مصر فيسوءه من بنى وطنه مظاهر الجود . يرى سيدة متحجبة تمشى فى شارع الدواوين تهتز كأنها فى مرقص فتشور حفيظته ، ويتبع الموظفين إلى مكاتبهم ، وأصحاب الثروة إلى مزارعهم ، فيسخر من أولئك وهؤلاء . ثم هو يضرب بنظره إلى البيوت المصرية فيرى كيف يُعامل الصبيان والفتيات معاملة تميمت فى الأولاد روح الرجولة ، وتمتد فى الفتيات روح الخفر . كل هذه الحوادث وآلاف مثلها هى التى كونت قاسم أمين الرجل . هى التى كانت تهبط على أعصابه فتتوتر لها أعصابه . وهى التى خلقت هذه الشخصية الأدبية التى تحدثنا عنها وسنتحدث عنها فيما بعد .

ولكن لعله لم يتأثر فى حياته كرجل كما تأثر « بالصدقة » وإذا نحن استطعنا أن نفهم رأيه فى الصدقة فقد فهمنا حياة قاسم أمين كمصلح اجتماعى وفهمنا كذلك دفاعه عن المرأة واحتفاله بالعلاقة بين الزوج وزوجته . « الصدقة » هى أساس كل تفكير اجتماعى ذهب إليه قاسم أمين ، لأنها هى الأساس الذى بنى عليه حكمه على الفروق بين الشرقيين وبين

الغريبين . وهى المعيار الذى اصطنعه لنقيس به مقدار ما بين الرجل وبين المرأة من علائق الرحمة والمودة .

وقد كان « صديقا » بأوسع ما نعينه من كلمة صديق . وهو فى مرة يصف مظاهر الصداقة بينه وبين بعض أصدقائه فيقول : « أكبر سرور : السرور الوحيد الذى يخفف عن الإنسان حَمْل الحياة ويرغبه فى بقائها ، وينسيه الزمن والساعة ، ويجعله يتمنى أن يحكم عليهما بالوقوف ، هو أن يوجد فى بيت صديق عزيز ويجلس على كرسى يستريح فيه محاطا بأشياء اعتاد أن يراها بنظره ويلمسها بيده » .

وهو حينما يتكلم عن الحب بين المرأة وبين الرجل يذكر أنه ينبغى أن يكون من نوع هذه الصداقة التى وصفها بين الرجل وبين الرجل . فهو يقول عند تدليله على وجوب تربية المرأة :

« كل منا يذوق حلاوة الساعات التى تمر به بدون أن يشعر بها حينما يطول الحديث بينه وبين صديق له ، وتختلط أنفسهما ببعضها ببعض ، حتى يذهل كل عن أيهما يتكلم وأيهما يسمع . فهذا السرور يتضاعف بلاشك إذا وجدَ هذا التوافق بين عقولنا وعقولهن ، ونفوسنا ونفوسهن . ولهذا فإننا نشفق عليهن ونحنن إليهن ونعذرهن . ولكن لا تكمل محبتنا لهن لأن الحب التام هو ذلك التوافق وهو معدوم » .

ثم هو لا يفتأ يذكر الصداقة في كتاب « تحرير المرأة حتى كأنما لا يمل ذكرها . فعنده أن رجال العصر الجديد « لا يرضون الارتباط بزوجة لم يروها . وإنما يطلبون صديقة يحبونها وتحبهم .. » . وعنده أن الرجل المتعلم « إنما يتخذ لنفسه بالزواج قرينا صالحا يمدد بالمعونة في شؤونه ويؤنس في وحدته ويسعفه في عمله ويقوم معه على بنيه » . وأنه « يختار زوجته لتكون صاحبة له مدة الحياة » . أليس في هذا دليل على أن هذه النفسية التي ندرس كانت نفسيةً صدوقا ، وأنها كانت تضع الصداقة في مكان سام من تقديرها . لقد تحدث عن الزوجة مرة فقال إنها صديقة ، وقال عنها إنها قرين ، وقال عنها إنها صاحبة . وكأنما لم يجد أكثر من هذه المترادفات ليصف هذه الصداقة التي كان ينشدها بين الرجل وبين المرأة .

ثم إنه كان في حياته الخاصة نعم الصديق . وقد تحدث إلينا الملباوى بك فقال : إنه التقى بقاسم لأول مرة وهما خصمان ، ثم اتفهما من قضيتهما وهما صديقان كأنما قد عرف كل واحد منهما أخاه منذ الطفولة . كذلك كان صديقا لفتحى زغلول . فهذا يكتب عنه في « سر تقدم الإنجليز » صديق قاسم أمين بك ، وذلك يتحدث عنه في « تحرير المرأة » فيقول صديق فتحى زغلول بك . ولكن ربما كانت أكبر صداقة ظفر بها هي صداقة سعد زغلول .

ولقد تبحث في كل ما كتبه الأصدقاء عن الأصدقاء فلا تجد أروع من هذه الكلمة التي كتبها قاسم أمين لصديقه سعد زغلول في إهدائه إياه كتاب « المرأة الجديدة » :

« إلى صديق سعد زغلول

فيك وجدت قلبا يحب وعقلا يفكر وإرادة تعمل . أنت الذي مثلت إلى المودة في أكل أشكالها ، فأدركت أن الحياة ليست كلها شقاء وأن فيها ساعات حلوة لمن يعرف قيمتها . من هذا أمكنني أن أحكم أن هذه المودة تمنح ساعات أحلى إذا كانت بين رجل وزوجته . ذلك هو سر السعادة الذي رفعت صوتي لأعلنه لأبناء وطني رجالا ونساء » .

فلنذكر عندما نتحدث عن قاسم أمين وتفكيره في المرأة أنه كان ينعم بصداقة رجل عظيم مثل سعد زغلول . وأنه كان يدعو بأن تقوم الصداقة بين كل رجل وصاحبته . وهو لم يدع إلى تربية المرأة وتثقيفها إلا لأنه كان يرى أن التفاهم من بين أسس الصداقة ، وأنه لا يمكن أن تكون صداقة بين الرجل وبين المرأة ما دام أن الرجل أرقى من زوجه ثقافةً وأوسع منها محيطا . ثم لنذكر أنه هو نفسه كان يعيش في حلقة من الأصدقاء بذل لهم من نفسه وحبهم بمقدار ما بذلوا له ، وكفاه أن كان من بين هؤلاء سعد زغلول .

ثم كان قاسم أمين صاحب شخصية وطنية مثقفة . لم تكن شخصية بسيطة تستطيع أن تلمح فيها عضدا واحدا بل كانت شخصية معقدة . أما الوطنية عنده فقد كانت أصيلة لأنه لم يكن يفكر فيها تفكيراً سياسياً وإنما كان يفكر فيها تفكيراً اجتماعياً عمرانياً . فهو يعبر عنها حين يتحدث عن أسس التربية ، فيدعو إلى تربية النشء على أصول الوطنية الحققة ، وعلى مبادئ الإيثار والجود بالصالح الشخصى فى سبيل الصالح العام ؛ ثم هو يعبر عنها حين يتحدث عن تربية المرأة فيرى أن تربيته تربية للأمة نفسها ، ثم هو يعجب بالوطنية فى فرنسا ويعبر أصدق تعبير عن الوطنية المصرية حين يكتب فى مذكراته كلمة عن ١١ فبراير سنة ١٩٠٨ يوم أن مات مصطفى كامل ولأنه وطنى ولأنه قد تتقف ثقافة أوروبا فقد كان له نظرتان إلى أوروبا تكادان تختلفان كل الاختلاف . النظرة الأولى هى النظرة القومية : نظرة السخط على أوروبا والنظرة الثانية هى النظرة العالمية : نظرة الإعجاب بأوروبا كان يعلم قاسم أمين أى افتئات على حقوقنا وأى إجحاف وقع على آبائنا وأجدادنا حينما تحجرت الامتيازات الأجنبية فضررت بالفساد فى جذور الحياة المصرية . كانت الدول الأوروبية ، لا ترعى حرمة فى سبيل مصالحها الخاصة . وكان القنصل الواحد يحكم شبه مملكة مستقلة لا تحترم قانون الدولة ولا تدفع ضرائبها ولا تلتزم بواجباتها . وكان يعلم قاسم أمين كما كان يعلم

الكثير من المصريين أن في هذا تعطيلا لتقدم مصر المنشود . على أنه كان لقاسم أمين نظرة إعجاب أخرى تختلف عن هذه كل الاختلاف . كان يعلم أن في البلاد الأوروبية حرية شائعة بين الأفراد والجماعات وأن التقدم المادى الذى بلغته قد قام على أساس من الخلق المتين ، وأن الجرأة والإقدام والشجاعة أجزاء متماسكة من هذا الخلق . وكانت وطنيته نفسها تنقلب إلى شعور بالغيرة ، وكانت غيرته تدفعه إلى الدعاية لهذه المبادئ الأوروبية التى سلمت له من دراساته المختلفة وقراءاته الواسعة .

لذلك كانت هذه الشخصية مزدوجة تجمع بين ثنائيات تحسبها فى أول الأمر نقائص . كان يحب المسلمين ويدافع عن عقائدهم ضد الذين خاضوا فيها عن جهالة ، وكان فى نفس الوقت يكره من المسلمين استسكانتهم إلى الرذائل التى ورثوها . وكان وطنيا ساخطا على أوروبا ، وكان وطنيا يدعو إلى اتباع خطوات أوروبا فى نفس الوقت . هذه الشخصية المزدوجة ، هى التى تبدو فى كل ما كتبه قاسم أمين . وقد تراوحت شخصيته هذه فى كل ما كتب حتى أساء فهمه الكثيرون لأنهم لم يدركوا الحنة التى يقع فيها مسلم وطنى يشور بالتقاليد ويعجب بما أتى به أهل الغرب .

لقد بحث كثير من النفسيين شخصية الإنسان و انتهى بعضهم إلى أن لكل إنسان أكثر من شخصية واحدة . لست أريد أن أذكر

« بدكتور جيمكل ومستر هايد » ولا بأية واحدة من هذه القصص النفسية الحديثة ؛ ولكن لقد ثبت أن لكل إنسان أكثر من محيط واحد يكون شخصيته . فإذا هو اختلط بإخوان له كَوّن اجتماعه بهم شخصية خاصة به قد تكون مَرَحَة وقد تكون بسيطة يسيرة . وإذا هو اضطرب في زحمة من الأجانب الذين لا يعرفهم تمصته شخصية أخرى قد تكون كئيبة حزينة . وكذلك قل عن الفرد بوجه عام : إن له شخصية عالمية حين يتتقف بثقافة عالمية ، وله شخصية قومية محدودة حين يكون في مجموعة من أبناء وطنه وله كذلك شخصية عائلية أخرى حين يسكن إلى زوجه وبنيه . وقد يجمع الفرد بين هذه الشخصيات . فهو مرة عَطُوف طروب ، وهو في أخرى جاد غير هازل ، وهو في ثالثة يحس بأنه جزء من عالم عريض ، وهو في رابعة يحس أنه وطني أو ربّ عائلة . والإنسان يحاول في حياته الخاصة أن يؤلّف بين هذه الشخصيات جميعاً لكنها تتناوبه حين يتقلب في وجوه الحياة لطلب الرزق أو المجد أو الجاه .

والشرقيون الذين تتفقوا بثقافة الغرب وعاشروا أهل الغرب ردحا من الزمان ، والذين أُشربوا أصول المدنية الغربية قد امتازوا دائماً بأن لهم شخصيتين تكاد تظهر كل واحدة منهما منفصلةً عن الأخرى . أما الشخصية الأولى فهي الشخصية الشرقية التي نشأوا عليها : الشخصية التي تحتفظ بالتقاليد والعقائد

الأولى وهى مستمدة من بيئة الإنسان حين نشأ فى المهد . أما الشخصية الثانية فهى الشخصية الغربية التى كوَّنتها البيئة المعنوية الأخرى . الشخصية الأولى هى التى تعاود الإنسان كلما حنَّ إلى بلده أو دينه ، والشخصية الثانية هى التى تملك عليه التفكير حينما يريد أن يقتدى بأهل الغرب . والشخصيتان يتعاوران الإنسان فتحدثان أزمة حادة أو قل محنة نفسية لا يُقدَّر مداها إلا الذين تمرسوا بها ممن آمنوا بالشرق منبتهم الأول ، وآمنوا بالغرب حين أصبح مثابهم الأخرى . هى أزمة نفسية حادة لأن الشرق من هؤلاء يحاول دائماً أن يوفق بين عقائده التى اختلطت بقلبه ، وبين ثقافته التى نشأت عقله ؛ وبين القلب والعقل فجوة قد تتسع بعض أحيان وتتسع حتى لا سبيل إلى التئامها .

كذلك كان قاسم أمين من أولئك الذين ازدوجت شخصيتهم . فهو يضع قدماً فى الغرب وقدماً أخرى فى الشرق ؛ وهو ينظر بعينٍ إلى أوروبا ويرى بالعين الأخرى إلى مصر . وهو بعد ذلك حامل ثقافتين حاول أن يلائم بينهما . وهو قد وجد نفسه فى ذلك الموضع الذى وصفنا ، وهو قد أصيب بأزمة نفسية حادة حين أخذ نفسه بالتوفيق بين الشرق وبين الغرب ، فلا تعجب إنَّ إذا بدت لك شخصيته الشرقية المسامة فى أحيان ، وإذا ظهرت لك شخصيته الأوروبية المتفرجة فى أحيان أخرى . ولا تحسبنَّ أنه متناقضٌ حين

يرد على الدوق داركور فيذكر فضائل الإسلام ومصر، وحين يكتب في تحرير المرأة فيذكر نقائص المسامين والمصريين . ولا تلومنه إذا نظر إلى أوروبا في مرة نظرة هادئة مستكبرة . فليس كل هذا إلا نتيجة لتلك الشخصية المزدوجة التي حاولنا أن نبسط الكلام فيها .

وحسبنا أن نذكر أنه كان وطنياً وأن الوطنية عنده كانت متعددة النواحي . فلم تكن وطنيةً مدافعةً فحسب، ولم تكن وطنيةً ، معمرة فحسب، ولم تكن وطنيةً ساخطة فحسب بل كانت وطنية معقدة تشمل كل هذه النواحي . وهو في ذلك يمثل طرازاً خاصاً من البيئة التي ولد فيها ، بل هو ثمرة من ثمرات الوسط المصري والوسط الأوروبي حينما امتزجا معاً .

وبعد فقد وصف قاسم أمين « الرجل المتعلم » في كلمات نود أن نتلوها عليك لأنها تنطوي على وصف ينطبق كل الانطباق على قاسم أمين نفسه . « الرجل المتعلم يحب النظام والتنسيق في منزله ، وله ذوق مهذب يميل إلى الأشكال اللطيفة ، والإحساسات الدقيقة ، والالتفاتات الرقيقة ، ويبلغ الاهتمام بها عند بعض الأفراد حدًّا ينتهي إلى إهمال الأمور المادية . يفهم بكلمة ويود لو يفهم بالإشارة . يسكت في أوقات ويتكلم في أخرى ويضحك

في غيرها . له أفكار يحبها ، ومذهب يشغله ، وجمعية يخدمها ، ووطن يعزه .
له لذائذ وآلام معنوية ، فيمكئ مع الفقير ، ويحزن مع المظلوم ، ويفرح
بالخير للناس . وفي كل فكرة تتولد في ذهنه وإحساس يؤثر على أعصابه ،
يود أن يجد بجانبه إنساناً آخر فيشرح له ما يشعر به ويتسامر معه » .

ذلك هو « الرجل المتعلم » عند قاسم أمين .

وذلك عندنا هو قاسم أمين نفسه .

عصره

(١) آثار البيئة المصرية

كان العصر الذى نشأ فيه قاسم فترة تجلّت فيها آثار الهزيمة السياسية ومظاهر النهضة الأدبية والمعنوية فى وقتٍ معاً . فقد هُزمت مصر يوم أن انجلت سنة ١٨٨٢ عن الاحتلال البريطانى ، لكنها لم تخمد روحها . فمنذ تلك السنة ظلت روحها حيّة تحبو أحياناً وتتألق أحياناً أخرى حتى اشتعلت بعد الحرب العظمى . كان العصر مليئاً بحوادث التاريخ ، لكننا لن ندرك كنهه حتى نبحث أموراً شتى : أما أول هذه الأمور فهو أمر العلاقة بين الشرق وبين الغرب ، وأما ثانى هذه الأمور فهو حركة الإصلاح الدينى والأدبى والعلمى التى شملت الشرق وترعمتها مصر ، وأما ثالث هذه الأمور فهو موقف قاسم أمين ومبلغ تأثيره من كل هذه الحركات .

نقول ذلك ونحن نعلم أن الفرد سواء أكان عظيماً أم غير عظيم فهو متأثر

بالبيئة التى يعيش فيها . أنه يتأثر بالبيئة المادية التى ينشأ فيها وليدا وطفلا وفتى وهو يتأثر بالبيئة المعنوية التى تخلق خياله وتعذى عقله وتنمى خلقه . وقاسم أمين كما رأيت قد دار فى بيئات مصرية شرقية مسامة ودار فى بيئات أخرى فرنسية غربية مسيحية . فإلى أى حد تأثر من كل واحدة من هذه البيئات ؟ ذلك ما نريد أن نبسطه بعض البسط حتى نرى الوسط الذى أنبت قاسم أمين .

حين هُزمت مصر فى سنة ١٨٨٢ كانت هزيمتها السياسية حافزا نهضتها الدينية والعمرانية والأدبية . وما نزال نحن إلى اليوم مدينين لتلك الجماعة التى قامت فى أخريات القرن التاسع عشر . فأفرداها هم الذين وضعوا أسس الحياة المصرية وحاولوا أن يبصروا الناس بمواضع الفخر فى تاريخهم ، وبمواضع القوة فى دينهم . فقامت مدرسة وطنية مثقفة حاولت أن تنفخ فى روح مصر وقد أفلحت فى أن تخلق جيلا جديدا أقبل على الحياة يزجيه الأمل الدفاع .

والحركة التى ظهرت بعد سنة ١٨٨٢ لم تكن فى الواقع إلا تكملة للحركة الفكرية التى نشأت فى عهد اسماعيل . أو قل إنها لم تكن إلا نتيجة للحركة القومية العامة التى بدأت فى عهد محمد على . هذه الحركة الفكرية

أو النهضة الأدبية — سمّها ماشئت — كانت قد اضطربت حينما قامت الثورة
العراقية. وتشقت الكثيرون بعد هذه الهزيمة السياسية ووقف الجميع ينتظرون
حينما فشل عرابي ، لكنهم أقبلوا على الحياة بعد استقرار الثورة وهم مؤمنون
بحق مصر في الحياة العامة . وقد احتسكت هذه الفئة الجديدة بالتفكير
الأوروبي فاستوعبت كثيرا من الأفكار الغربية التي استقتها من مصادرها
الأولى ؛ وازدهرت هذه الفئة في أخريات القرن التاسع عشر وأوائل القرن
العشرين وبلغ من تقدير اللورد كرومر لهم أن شبه واحدا منهم بالجيروند في
أيام الثورة الفرنسية . والحق أن كثرتهم كانت تشبه الجيروند في التعاطف
بالمثل الأعلى ، وفي الإيمان بسمو الفكرة ، وفي الثقافة والشجاعة والإخلاص
كان بين هؤلاء الشيخ محمد عبده وجمال الدين الأفغانى وانضم إليهم
قاسم أمين وسعد زغلول . وقد اجتمع هؤلاء لا على أن يكونوا حزبا ولا
ليدافعوا عن فكرة سياسية بعينها ؛ وإنما هي الحوادث والميول التي ربطت
قلوبهم . وكانت الوطنية المصرية قد فقدت قليلا من الثقة حين وضعها
الفشل بعد الثورة ، لكنها بدأت تلتئم رويدا رويدا فابتنيت على أسس أخرى
تخلو من الكفاح العسكرى ولو لم تخلُ من كفاح الفكر . ونمت في أعقاب
القرن الماضى تلك الفئة المثقفة التي مثلت في مصر نفس الدور الذى قامت به
الطبقة الوسطى المستنيرة في إنجلترا وفرنسا . فكانوا هم رسل الحياة الأوروبية

وكانوا هم زعماء الإصلاح : درس الكثير منهم القانون ، ودرس بعضهم الفلسفة ، وتعمق بعضهم في دراسة الفقه الإسلامي ؛ فكانوا زعماء الفكر في مصر بل لقد نشأ بينهم الزعيم السياسي مصطفى كامل .

واقدر كان الشرق والغرب في خلال تلك الفترة في كفاح ظاهره العلم والدين والثقافة وباطنه الاستغلال المادي . ولا يمكننا أن نقدر العلاقة بين الشرق وبين الغرب حتى نفحص حركة الكشف العلمي في خلال القرن التاسع عشر ، وحتى ندرس أطباع الدول الأوربية في القارة الافريقية شمالها وجنوبها . ولم تكن مصر في هذه الفترة إلا جزءاً من الشرق يحاول أن يغتاله الغرب سياسياً ويستغله اقتصادياً . ولم يكن الأمر أمر حكومة واحدة فحسب ولا أمر شعب واحد فحسب ، بل كان نصف العالم الغربي يغير على نصف العالم الشرقي . وكان العالم الغربي يسمى ذلك « تجارة » أو « علماً » أو « مذهباً إمبراطورياً » أو « عبء الرجل الأبيض » أو ما شاكل ذلك . وكان العالم الشرقي يستيقظ من سبات عميق يكاد يهر عينه العلم الجديد ، وتكاد تذهله قوة الحديد والبار .

ثم إن فريقاً من كتاب الغرب كان قد بدأ يؤمن بنظرية « الجنس » وقد كانت هذه النظرية غامضة يرددها علماء النصف الأول من القرن التاسع

عشر حتى أتيح لها عالم فرنسى هو الكونت جوينو فى سنة ١٨٥٨ . فهو الذى فصلها ودافع عنها ودعا إلى الإيمان بها . وقد ذهب جوينو إلى أن الجنس الأبيض قد تفرّد بكل الخلق العظيم وأن ما عداه من الأجناس فهو عالة عليه . الجنس الأبيض عنده قد اختص بالجمال والذكاء والقوة فى تاريخ الحضارات — حتى الصينية — وكل حضارة عالمية قد اشتقت وجودها من الجنس الأبيض . ولا يمكن لجماعة إنسانية أن تبلغ أى مدى من العظمة والتقدم حتى تحتفظ بالدم الذى ورثته عن سلفها الأول : وهو هذا الجنس العظيم .

وقد تأثر الكتاب الآخرون بما ذهب إليه جوينو حتى فرقوا بين الجنس الآرى وبين الجنس السامى، وحتى اتخذها دعاة التوسع فى الفتح أداةً للتجنى على أهل الشرق من تونس والجزائر ومراكش ومصر . وعجيب أن يكون رينان وهو من تعلم مكانه بين الفلاسفة من مؤيدى هذه التفرقة، ومن الذين تحدّثوا عنها بحماسة اتخذت ذريعة فى الحركات الاستعمارية التى قامت بها فرنسا . فقد ذهب رينان إلى أن الأمم السامية « قصيرة الخيال جافة التصور تدرك الأشياء إدراكاً أولياً ولا تتعمق فى بحثها ، ولا تسترسل فى كشف الحقائق ومعرفتها وتحكم على الأشياء لأول وهلة حكم المعتقد الجازم بصحة الشئ الذى أقنعتة التجارب والبراهين القطعية . خيالاتها محدودة

وإدراكاتها محدودة ، ونظاماتها الاجتماعية لا تعرف التطور ... وليس في نظام حكومتها ما يدل على سعة الإدراك ولا على أثر التفكير وليس لها في عالم الأدب أثر يذكر .. بل ليس لها فلسفة » وكذلك قامت فئة من الكتاب الفرنسيين تصور الإسلام في صورة الدين الخرافي العتيق والمسلمين في صورة الضعاف العجزة، وقد كان من هؤلاء هانوتو الذي ردّ عليه الأستاذ الإمام ودوق داركور الذي ردّ عليه قاسم أمين .

أجل فقد كان في الميدان الشرقي مجاهدون آخرون يحاولون أن يدافعوا عن أنفسهم وعن بلادهم بما أوتوا من قوة الحججة والإقناع . ولعلمهم لم يكونوا يريدون أن يقنعوا الكتاب الآخرين بقدر ما أرادوا أن يقنعوا أنفسهم وأن يقنعوا أهل الشرق أجمعين . وكان من هؤلاء تلك الفئة المستنيرة في مصر التي قامت بعد سنة ١٨٨٢ والتي قلنا إنها احتفظت بأصول النهضة المصرية في القرن التاسع عشر . وكان إمام هؤلاء جمال الدين الأفغاني .

وإذا أنت أردت أن تدرك الزبدة مما كان يذهب إليه جمال الدين فاعلم أنه كان يذهب إلى أن لدول الإسلام تاريخاً عظيماً ، وأن في الدين الإسلامي نفسه عناصر النشأة والنهضة، وهو كان يدعو إلى وحدة إسلامية تضم في أعطافها كل بلاد الشرق الإسلامي من الهند إلى مراکش . وفي هذه الوحدة الإسلامية يجب أن تزول حزازات النفوس وعداوتها، ويجب أن يكون الدين

مبدأ عاما يستنير به الهندي والأفغانى والمصرى على السواء . وكان يرى أن أوروبا قد تحمفت هذا الدين ، وتجنبت على أهله بقوة السيف ، وأنه لا يستطيع مقاومة الاعتداء من جهة الغرب إلا إذا استعاد الإسلام خلقه الأول .

أما الخلق الأسمى الذى رآه جمال الدين فى الإسلام فقد كان الحرية سواء . كان يدعو إلى الحرية فى كل مظهر من مظاهرها . وكان أساس الحرية عنده أن يتخلص أهل الشرق من عوامل الاستبداد التى تحول بينهم وبين التقدم . لذلك جهر بعدائه لكل نوع من أنواع السلطة . ضاق باستبداد السلطان العثمانى وخلف تركيا وجاء مصر يحاول أن يتمتع ببعض الحرية .

مثل هذه المبادئ كان يذيعها جمال الدين وكانت تسرى سريان الكهرباء فى ظلمة الليل البهيم . وكان شيخ معمم يجلس فى الصفوف الأولى هو الذى يتلقى دروس الحكيم الأفغانى فيصوغها فى لسان عربى مبين . أما ذلك الشيخ فقد كان متصوفا . وكانت نظراته المتصوفة قد انتهت به إلى كثير من الغموض والإبهام . لكنه وقد عرف جمال الدين وتلقى عنه مثل هذه التعاليم استطاع أن يحدد تفكيره رويدا رويدا ، واستطاع أن ينظر إلى مبادئ الإسلام فى هذا النور الذى أضفاه جمال الدين . وليس ذلك الشيخ المعمم إلا الشيخ محمد عبده .

كان ذلك الحكيم يجلس إلى الناشئة المصرية فتهمى كلماته فى قلوب

مشوقة كاد اليأس يحطمها . وكان الشيخ المعمم يأخذ كلمات الحكيم فيصوغها كلاما عربيا فصيحاً ينشره هنا وهناك فإذا المصريون تدبّ في نفوسهم الحياة بعد موات ، وإذا النهضة تؤتّى أكلها فتقوم فئة فينا تنشر الدين على أصوله وتزكينا في فهم أمور دنيانا وتبصرنا بما يجب علينا نحو « الوطن » وتبث فينا حب الحرية والنضال في سبيلها .

وقد ظل الأستاذ الإمام ينقد ما آل إليه الدين في أيامه ويردّ الناس إلى أصوله الأولى حتى خلّص الدين من الشوائب التي ابتلى بها . ظن الناس أن الشريعة الإسلامية جامدة لكنه فتح أبواب الاجتهاد وما زال يدلى بالرأى في كل مسألة من المسائل حتى وفق بين الإسلام وبين أصول الحضارة الحديثة فلم يحن حينئذ حتى كان المسلمون قد استقروا على قيم أخرى من حيث كسب الرزق والمرأة والزواج والقوة والشورى وغير ذلك . نفس هذه المشاكل هي التي واجهها المسلمون في أقصى الأرض ، وهي التي عالجها بعض قادة المسلمين في الهند كما عالجها الأستاذ الإمام في مصر .

وكان في القاهرة شاب آخر بل قل شعلة من الذكاء والعبقريّة والخماسة: شاب نشأ في منزل أب من أوساط المصريين فتمثل الوطنية في حياته وعاش لوطنه ومات في سبيل الوطن . إذا ذُكرت الوطنية نفسها لم تجد له مثيلا في الأمم الأخرى إلا قليلا . ذلك هو مصطفى : مصطفى كامل .

كان مصطفى روحا تكاد تتجرد لإدراك المثل الأعلى . شغف في حياته بثلاثة أحرف كان حسبه أن يعيش من أجلها وحسبه أن يموت في سبيلها . وقد كانت « مصر » دائما هي الرؤيا التي تطالعه وهو صاح في وضوح النهار ؛ وكانت « مصر » أيضا هي الحلم الذي يلازمه وهو نائم في غسق الليل . وكان يرى أن في مصر قوة يستطيع أن يتغلب بها على المحتلين الذين ألقوا بهم إليها صروف السياسة . وكان يدافع عن حق مصر سياسيا لأنه من رجال السياسة ، وقانونيا لأنه من رجال القانون . وحاول أن يصبغ المسألة المصرية بصبغة دولية حتى يتذرع بذرائع القانون الدولي . لذلك جنح إلى التمسك بأهداب الخلافة القائمة حتى يتخذ من كل ذلك حجة على احتلال غير مشروع . ولذلك كان يرى أن تفيد مصر من الاختلاف بين إنجلترا وفرنسا، وحاول ذلك حتى اتفقت إنجلترا وفرنسا في سنة ١٩٠٤ . على أنه كان يرى في الوطنية شيئا أسمي مما يقتضيه القانون والسياسة ، لأنه رأى فيها الإصلاح الوطني ، ودعا إلى نشر التعليم ، وكان أعظم خطباء عصره وأغزرهم مادة وأكثرهم كتابة .

هؤلاء ثلاثة من زعماء الفكر الذين عاشوا في عصر قاسم أمين ولعلك قد رأيت فيهم أمثلة من ألوان الوطنية التي شاعت في ذلك العصر . بل لعلك تستطيع أن ترى مبدأ المدارس الفكرية التي قامت في مصر في الربع الأخير

من القرن التاسع عشر والسنين الأولى من القرن العشرين . وقد كان لابد
لزعماء مثل هؤلاء أن يصطدموا بقوات الغرب المعتدية ، فكان في هذا
الاصطدام نفسه الخير كل الخير لأنه نبّه الأذهان وهزّ المشاعر . والغريب
أن يلتقى جمال الدين ورينان في باريس ، وأن يتكلم رينان عن الإسلام
كما عرفه فيرد عليه جمال الدين مفصّلاً مبادئ الإسلام كما ينبغي أن تُعرف .
والغريب كذلك أن يكتب هانوتو عن الإسلام فيرد عليه محمد عبده ، وأن
تكون خطب مصطفى كامل جميعاً رداً على من ذهب إلى تأخر المصريين من
دعاة الاستعمار والمستعمرين . والغريب بعد ذلك أن يظل قاسم أمين ساكناً
حتى يحرك مشاعره جميعاً كتاب كتبه أحد المستعمرين من كتاب فرنسا
وهو دوق داركور .

كان هناك إذن كفاح بين كتاب من أهل الغرب وآخرين من أهل
الشرق . وقد لحظ قاسم أمين هذا الكفاح الخطير وتأثر بكل هذه المذاهب
السياسية والاجتماعية التي تقلب بينها واستجاب للآثار التي تلقاها من الوسط
المصرى الذي عاش فيه قبل أن يرحل إلى أوروبا ، وعاش فيه بعد أن عاد
من أوروبا ، فإذا أنت قرأت كل الذى كتب - وقد كتب القليل مما كان
يجول بخاطره - راعك منه أنه بحث فى الدين بنفس الأسلوب الذى كان

يبحث به رجل مثل جمال الدين ، وراعك منه أيضاً أنه بحث في عللنا الاجتماعية بمثل الطريقة التي بحث فيها محمد عبده . ثم إذا أنت قدرته كوطنى رأيت أنه أحد الأفراد الذين نشأوا في بيئة مصطفى كامل ، وأن وطنيته نفسها كانت هى الدافع الأول والأخير من دوافع الإصلاح .

وكأنما قاسم أمين ثمرة من ثمرات عصره وكأنما قد تأثر بوسطه كما أثر فيه . تأثر بوسطه المصرى لأنه ذهب مع جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده في شأن إصلاح الدين ، وتأثر بوسطه المصرى حين دعا إلى الإصلاح حتى تصمد مصر لقوات الغرب المعتدية ، وتأثر بوسطه المصرى حين دعا إلى نوع أصيل من الوطنية المصلحة . وهو قد كان يعلم من أمر المذاهب الأوروبية المعتدية ما نعلم وكان يتتبع نشأة « المذهب الامبراطورى » والرأسمالية الغربية بدقة الدارس الممحص . بل لقد كان يعلم أن الدول قد تربصت بمصر الدوائر وأن مصر إذا أرادت أن تنجو مما كان يهددها من الخطر كان عليها أن تتخذ كل ما يمكنها من ذرائع القوة . ولنبحث بعض الفقرات التى يتحدث فيها عن كل ذلك فهو يقول فى أول فصل « المرأة والأمة » من كتاب « تحرير المرأة » :

« كل من تعلم من المصريين وساعده حسن الحظ على أن يتعرف أحوال أمته وحاجاتها ويحيط بها ، يعلم أن الأمة المصرية دخلت اليوم فى دور مهم ، بل فى أهم دور من تاريخها » .

« إنى لا أجد فى ماضيها عصرًا انتشرت فيه المعارف وظهر فيه الشعور
 بالروابط الوطنية ، وانبث الأمن والنظام فى أنحاء البلاد ، وتتهيأت الأسباب
 للتقدم مثل العصر الذى نعيش فيه الآن . ولكنها من جهة أخرى لم يمر عليها
 زمن صارت فيه حياتها معرضة للخطر مثل ما هى فى هذا الزمن . فإن تمدن
 الأمم الغربية يتقدم بسرعة البخار والكهرباء حتى فاض من منبعه إلى جميع
 أنحاء المسكونة فلا يكاد يوجد منها شبر إلا وطئه بقدمه . وكما دخل فى مكان
 استولى على منابع الثروة فيه من زراعة وصناعة وتجارة ، ولم يدع وسيلة من
 الوسائل إلا استعملها فيما يعود عليه بالمنفعة وإن أضرب جميع من حوله من
 سكان البقاع الأصليين . فإنه إنما يسعى إلى السعادة فى هذه الحياة الدنيا
 يطلبها أنى وجدها وبأى طريقة يرى النجاح فيها . وهو فى الغالب يستعمل
 قوة عقله فإذا دعت الحال إلى العنف واستعمال القوة لجأ إليها . فهو لا يطلب
 الفخار والمجد فيما يمتلك أو يستعمر ، لأنه يجد ذلك متوفرًا له فى أعماله العقلية
 واختراعاته العلمية . وإنما الذى يحمل الانجليزى على أن يسكن الهند ،
 والفرنساوى الجزائر ، والروسى الصين ، والألمانى زنجبار هو حب المنفعة
 والرغبة فى تحصيل الثروة من بلاد تحتوى على كنوز لا يعرف أهلها قيمتها
 وطرق الانتفاع بها . »

ثم هو يشرح بعد ذلك الوسائل التى تتخذها الأمم الأوروبية عند التدخل

فى شؤون الأمم الشرقية المستضعفة ؛ وهو يذكّر أن الأمم من الجانبين فى كفاح دائم ، وأن النصر سوف يكون للأمم الأكثر مالا وعلماً وعرفاناً . وهذا عنده « ما سماه داروين قانون التزاحم فى الحياة : فطرة الله التى فطر عليها جميع الأنواع وأودعها فيها لتُعَدّها إلى الرقى فى درجات الكمال . فما ضعف منها عند التزاحم عن مغالبة منازعه اضمحل ونبذه الوجود إلى خفاء العدم ؛ وما قوى عند التغالب أظفره الله بالنصر المبين ، فيرجع من ساحات هذا القتال الدائم مبرهنات بظفره على أنه أفضل بنى نوعه ، وأكرمهم ؛ فيعيش ويبقى ويتناسل وينمو ويظهر فيه كمال نوعه وتخلد به آثاره . »

ثم هو بعد أن يصف هذا الكفاح ينشئ إلى موقف مصر من كل ذلك ومبلغ ما ينبغى أن تنهض له من ملاقات العلم بالعلم ، والخلق بالخلق ، والقوة بالقوة . وهو يقول فى ذلك : « فلا سبيل للنجاة من الاضمحلال والفناء إلا طريقاً واحدة لا مندوحة عنها . وهى أن تستعد الأمة لهذا القتال وتأخذ له أهميتها وتستجمع من القوة ما يساوى القوة التى تهاجمها من أى نوع كان خصوصاً تلك القوة المعنوية وهى قوة العقل والعلم التى هى أساس كل قوة سواها . »

ألسنا نرى فى هذه الفقرات المتصلة التى نقلت إليك من « تحرير المرأة » كيف أن قاسم أمين قد عرف أساليب السياسة الأوروبية . لقد عرف أية

قوة كانت تربض وراء أوربا ، وأية قوة كانت تريد أن تفتك بمصر وغيرها
من الأمم المستضعفة ؛ ثم إنه كان أحد المصريين والشرقيين الذين آمنوا بأنه
لا منجاة لمصر ولا للشرق من اعتداء أوربا إلا إذا استعان المصريون
والشرقيون بقوة معنوية يتخذونها من العلم والعقل . لقد كان في ذلك واحداً
من رجال عصره . كان واحداً من هذه الحلقة الطيبة التي ضمت جمال الدين
والأستاذ الإمام وفتحى زغلول وسعد زغلول ومصطفى كامل .

(ب) آثار البيئـة الفرنسية

وإذا كنا قد بحثنا آثار البيئة المصرية في قاسم أمين فجدير بنا أن نبحث بيئته الأخرى التي عاش فيها في فرنسا . بل جدير بنا أن نبحث بيئته الأدبية التي عاش فيها بعد أن رجع من فرنسا . وقد ذهب إلى مونبلييه في صيف سنة ١٨٨١ ورجع في صيف سنة ١٨٨٥ فكأنما قد امتد مقامه في فرنسا أربعة أعوام كان في خلالها دائب الدراسة والقراءة . والباحث في كتبه يرى أنه قرأ كثيرا من الكتب الفرنسية : قرأ كتباً لروسو ولامارتين وفولتير وفنلون وچول سيمون ، وقرأ لغيرهم من القدامى والحديثين . وكذلك كوّن له وسطا ثقافيا خاصا جال فيه . ولكل مفكر مثل هذا الوسط الذي تكوّنه قراءاته . لكل مفكر محيط أدبي تخلقه له الأفكار التي تنتال عليه من كل جانب والتي لم يزل يزيدها وينميها .

وفي الوقت الذي كان بعض المفكرين الفرنسيين يذهبون إلى ما ذهبوا إليه من تسويغ الاستغلال المادى ، ويتناولون بما تناولوا به في شأن الشرق

والشرقيين ، كانت في فرنسا نفسها أفكار أخرى عن الحرية ، وعن حقوق الأفراد ، وحقوق الطبقة العاملة ، وحقوق النساء ، وعن فكرة التقدم . نعم ! كان بعض الكتاب الفرنسيين كما ذكرنا يتجنون على أهل الشرق ويختلقون المعاذير للسياسة التي تسير عليها حكوماتهم ؛ ولكن الجو الأوروبي لمن عاش في أوروبا كان جو الحرية الأصلية . وأول ما تأثر به قاسم أمين إنما هو الحرية التي لقيها في فرنسا وشهد آثارها في السنوات الأربع التي عاشها هناك .

وأحسبني لست في حاجة إلى أن أردّد ما كسبته فرنسا خلال القرن التاسع عشر من حقوق سياسية للفرد . فقد بدأت هذه الحقوق السياسية تظهر في الوجود عند الثورة الكبرى ، وكان إعلان حقوق الإنسان إعلانا للثورة نفسها . وكانت الحرية أصلا من الأصول التي شملها إعلان حقوق الإنسان : حرية القول والفعل والعقيدة . وكانت التجارب السياسية في فرنسا ترمي دائما إلى أن تلائم بين نظام الحكومة وبين الاحتفاظ بهذه الحريات . بل كان التفكير السياسي في إنجلترا يرمي إلى مثل ذلك . وكان قد استقر رأى المفكرين والفلاسفة على أن لكل فرد شخصية خاصة يجب أن يحتفظ بها ، وأن لكل فرد أن يحكم عقله ونفسه فيما يلقاه من النظم والمشاكل . وهذه الفردية التي شاعت في فرنسا وإنجلترا وأمريكا كانت

أساس الحرية في مظاهرها العديدة وهى التى كان يحسها كل من عاش في فرنسا في تلك الحقبة لأن الحرية كانت نفحة من نفحات الحياة .

« الحرية الحقيقية تحتل إبداء كل رأى ، ونشر كل مذهب ، وترويج كل فكر .

« في البلاد الحرة قد يجاهر الإنسان بأن لا وطن له ، ويكفر بالله ورسوله ويطعن في شرائع قومه وآدابهم وعاداتهم ، ويهزأ بالمبادئ التى تقوم عليها حياتهم العائلية والاجتماعية ؛ يقول ويكتب ما شاء في ذلك ولا يفكر أحد ولو كان من أعد خصومه في الرأى أن ينقص شيئاً من احترامه لشخصه متى كان قوله صادراً عن نية حسنة واعتقاد صحيح . كم من الزمن يمر على مصر قبل أن تبلغ هذه الدرجة من الحرية ؟ »

تلك كلمات كتبها قاسم أمين يصف بها مظاهر الحرية التى عاش فيها وهو مقيم بفرنسا ، ولا بد أن نذكر ذلك حين نتحدث عنه كمصلحة لأن الحرية الفكرية هى التى أنارت له السبيل نحو إصلاحه الاجتماعى . لكن هناك وجهاً آخر للحرية التى شاعت في أوروبا في أخريات القرن التاسع عشر . فقد بدأت هذه الحرية في الانتشار رويداً رويداً حتى ضمت بين أعطافها طبقات من الناس لم يعترف بحقوقهم من قبل . نعم ! كانت الثورة الفرنسية الكبرى ثورة سياسية انتهت باعتراف القانون والسياسة بما للفرد من حقوق

لكنه كان قد بقي أن يُعترف بهذه الحقوق اجتماعياً واقتصادياً . كانت الديمقراطية في النصف الأول من القرن التاسع عشر ديمقراطية سياسية فحسب ، لكنّ المفكرين في النصف الثاني من هذا القرن كانوا يدعون إلى ديمقراطية اجتماعية واقتصادية . وكانت محاولات الاشتراكيين والشيوعيين والفوضويين كلها ترمى إلى إدراك المساواة الاجتماعية والاقتصادية إلى جانب المساواة السياسية التي اعترف بها القانون . وفي سنة ١٨٢١ دافع سان سيمون عن حقوق العمال . وفي سنة ١٨٤٠ كتب پرودون كتابه « ماهي الملكية ؟ هي السرقة » . وفي سنة ١٨٦٧ كتب كارل ماركس كتابه « رأس المال » . وهذه السلسلة من رجال الثورة الاشتراكية هي التي كشفت الطبقة العاملة ، وحاولت أن تخلّص أفرادها من بين برائن الرأسمالية الخبيثة . وانتهت أيضاً بأن ألغى الرق ، وأصبح العبيد ينعمون بما ينعم به الأحرار .

كُشفت الطبقة العاملة خلال القرن التاسع عشر كما كُشفت حقوق العبيد . وقد كُشفت كذلك حقوق المرأة . فقد كانت هناك حركة نسائية في فرنسا ، وكانت هناك حركة نسائية أخرى في إنجلترا وفي أمريكا ؛ وكانت ترمى هذه الحركات إلى أن تُحرّر المرأة من رتبة الاستعباد الاقتصادي في المصانع وبين الآلات ؛ بل كان بعضها يرمى إلى منح المرأة حقها الانتخابي . وتكوّنت من النساء اتحادات وجماعات تدافع عن حقوق المرأة وتنشر الدعوة

فى كل مكان . وأفلحت الحركة النسائية فى أمريكا حتى اشترك النساء فى ولاية يومنچ فى القيام بالوظائف العامة . ومشت الحركة النسائية قُدماً حتى بلغت نتأىج تبشر بمستقبل سعيد فى فرنسا وانجلترا .

لا بد أن يكون قد تأثر قاسم بهذه الحياة الحرة التى يدافع فيها كُتاب ومفكرون عن طبقات العمال والنساء . ولا بد أنه قد تغذى بهذه الأفكار والآراء قبل أن يعود الى مصر . لكن التأثر نفسه كان بطيئاً خفياً . لقد تلقى هذه الآثار لكنها اختفت فى حياته الدراسية وظهرت بوادرها بعد ذلك فى حياته العامة . وما زالت هذه الآثار تعمل فى عقله الباطن ونفسه غير الواعية حتى ظهرت فى إبانها حينما تحدث عن المرأة ، عند ذلك فقط ظهر فى صورة المصلحين الذين شهد آثارهم فى فرنسا ، وفى صورة المفكرين الذين درسهم وبحث كتاباتهم ومذاهبهم .

وحينما بحث حياة الجماعة المصرية وضع أصبعه على موطن الداء لأنه أرجع سيئات هذه الجماعة إلى ظلم الولاية وضياع حقوق الأفراد . لقد كان من البدائن المعلومة فى فرنسا أن الحكومة الظالمة المستبدة تخلق أفراداً ناقصين علماً وخلقاً ، وكان من بدائه القانون أن العدل والحرية من شأنهما أن يسموا بالخلق العام . وحينما بحث قاسم أمين فى تاريخ مصر والإسلام اقتحم هذه الحرية ، وعلم أن الاستبداد هو الذى نزل بالرجل والمرأة على السواء إلى حيث الموطن الوضع فى البيئة المصرية التى عاش فيها .

وهو يقول في مقدمة « تحرير المرأة » :

« تجردت الجمعيات الإسلامية على اختلاف الأزمان والأماكن من
النظمات السياسية التي تحدد حقوق الحاكم والمحكوم ، وتخول للمحكومين
مطالبة الحاكم بالوقوف عند الحدود المقررة له بمقتضى الشريعة والنظام ، بل
أخذت حكومتها الشكل الاستبدادى دائماً فكان لسلطانهم وأعوانه سلطة
مطلقة . .

« وكان من أثر هذه الحكومات الاستبدادية أن الرجل فى قوته أخذ
يحتقر المرأة فى ضعفها . وقد يكون من أسباب ذلك أن أول أثر يظهر فى
الأمّة المحكومة بالاستبداد هو فساد الأخلاق . »



لكن كل قول عن التفكير الفرنسى فهو ناقص إذا نحن لم نعالج
« فكرة التقدم » التى كانت تنشأ بين بعض الكتاب والفلاسفة فى أخريات
القرن التاسع عشر ، كما نشأت بين كتاب وفلاسفة آخرين فى فترات كثيرة
من تاريخ البشر . ولقد تعلم أن « دارون » كان قد كتب كتابه عن أصل
الأنواع فى سنة ١٨٥٩ ، وأنه قد ذهب إلى أن حياة العضويات على ظهر
الأرض أمر متبطة فى سلسلة تسير من قرن إلى قرن ، ومن جيل إلى جيل ، وأن كل
عضو فهو منحدر من سلالة وهو منحدر إلى سلالة أخرى . وفكرة التطور

هذه أخذت العالم المتحضر أخذاً شديداً فاعتنقها العلماء والأدباء في النصف الأخير من القرن التاسع عشر. وما زال يزيدها كل عالم وضوحاً حتى أصبحت هي المبدأ والمعاد لكل لون من ألوان المعرفة. تناول الأدباء والمفكرون فكرة التطور فانتفعوا بها في الأدب، لأنهم عالجوا فروع الأدب كما كانت تعالج العضويات، وانتفعوا بها كذلك في دراسة التاريخ وعلم تقويم البلدان وكذلك أثرت في العقيدة الدينية وفي الاجتماع والحياة العامة.

ولا تحسبن أن فكرة دارون هذه طغت على الدين، فقد انتهى القرن التاسع عشر وأشرق القرن العشرون فإذا جمهرة الكتاب والمفكرين والعلماء يخلقون ديناً جديداً من العلم نفسه. وسمى هذا الدين الجديد «فكرة التقدم» في أحيان، وسمى في أحيان أخرى «التطور الابتداعي». ويتلخص في أن الحياة الإنسانية على ظهر الأرض لها غرض أسمى تندفع إليه، وأن كل شؤون الحياة يجب أن تسير في طريق يحقق ذلك الغرض الأسمى. واستكشف الفلاسفة أن للإنسان إرادة في حياته الدنيا، وأن كل شؤون الحياة قد بدأت ناقصة لكنها اكتملت بهذه الإرادة التي رُكبت في طبيعة الإنسان. فإذا سلمت هذه الإرادة عند جمهرة من الناس فلا بد أن يتطور العالم إلى الدرجة المرجوة من الكمال. وكذلك أراد دارون أن يبين للناس في كتاباته كيف تتطور السلالة الإنسانية؛ لكن فلاسفة - جاء في أثرهم برجسون - أرادوا

أن يبينوا لماذا تتطور السلالة الإنسانية . وما دام الفلاسفة قد كشفوا أن في العلم نفسه ديناً جديداً يدعو إلى الخلود ويدفع الناس إلى أن تكون لهم إرادة وينصب لهم غرضاً سامياً يعملون له فقد حُلَّت المشاكِل بين العلم وبين الدين وانتهى العلم والدين كلاهما إلى طريق وسط ، وعادت فكرة الروح ثانية إلى الوجود ، وتزايدت مبادئ العلم الجامدة .

واضطرب شرق مسلم مثل قاسم أمين في هذا الوسط وقرأ لمن تحدث عن فكرة التطور والتقدم فاعتنقها مبدأً هاماً من مبادئ الإصلاح . ولعله لم يؤثر في حياته العامة مثل ما أثر هذا المذهب .

ولم تكن عقيدته العليا إلا فكرة التطور أو التقدم أو استكمال النقص أو تكوين الإرادة العامة .

نقول كانت عقيدته العليا هي « فكرة التقدم » . ولم تكن الفكرة نفسها غريبة عن الوسط الذي عاش فيه . ولأمرٍ ما ترجم فتحى زغلول « سر تطور الأمم » و « سر تقدم الإنجليز السكسونيين » و « روح الاجتماع » . ولأمرٍ ما أشرب قوم من المصريين ما سموه « الكمال » . ولأمرٍ ما يقول محمد عبده « لا بد أن ينتهى أمر العالم إلى تأخى العلم والدين على سُنَّة القرآن والذكر الحكيم . وليس بينك وبين ما أعيدك به إلا الزمان » . ثم لأمرٍ ما ترددت كلمة « الكمال » عشرات المرات فيما كتبه قاسم أمين . أليس كل

هذا دليلا على أن روح العصر في مصر كانت روحا دفاعة من التفاؤل والرجاء، وعلى أن الجماعة المصرية كانت تنظر إلى المستقبل . وكان ينظر إلى المستقبل قاسم أمين .

لقد كان يؤمن قبل كل شيء بأن العالم يتطور من درجة إلى درجة وبأن الحياة الإنسانية في تقدم دائم . كان يرى أن النشوء والارتقاء يتناول كل مجتمع على ظهر الأرض وأن حياة الإنسان غرضا أسمى هو الذى يتقدم نحوه . كان يرى أن الإنسانية تتقدم قليلا قليلا نحو حالة من الكمال . وأنها كلما مضت بها سنة تقدمت خطوة نحو هذه الحالة الكمالية السامية . والجماعات في تقدمها من حال إلى حال قد يعثر بها وهن أو خمول أو خطل ؛ لكنها لا بد أن تتغلب على تلك العقبات . لقد تلقى في طريقها كثيرا من الصعاب بل ربما مضت في فترات من التحلل والتدلى لكنها لا بد أن تخرج من مثل هذه الفترات قوية رشيدة حتى تبلغ أهداف الحياة العليا . لذلك طالما تحدث عن الأمل وطالما كتب عن المستقبل . وهو يقول في كتابه « المصريون » . « أيمكن أن نقول إن الأمة المصرية تحتل نفس المركز المعنوى والسياسى الذى تحتله الأمة الفرنسية ؟ كلا ! إن الأولى تبدأ بينما الأخرى قد وصلت أو قل قد أوشكت على الانتهاء . إننا نؤمن إيمانا ثابتا بتطور الإنسانية الدائم أو بقدرتها على استكمال ما تلقاه من النقائص . ولا بد أن يكون هناك حد

ينتهى عنده جمود أمة من الأمم أو نكوصها على أعقابها . إنه لمن الصعب أن نقول إن هذه الإنسانية المسكينة قد قضى عليها أن تتقهقر بدلا من أن تسير إلى الأمام بينما يمكن حل المشاكل التي تتصل بمستقبلها بما ينطوى عليه العلم » .

وإذا أنت نظرت إلى الحياة من هذا الوجه رأيته يسيرة ورأيت مشاكلا تنحل الواحدة بعد الأخرى . وأدركت أن القسوة والظلم والإثم كل هؤلاء ليست هي في الواقع شرورا لا حل لها بل هي أخطاء صادفتها الإنسانية حينما لم ترشد إلى طريق سوى . وليس شأن النبيين والمصلحين في هذا العالم إلا أن يدعوا الناس إلى أقوم السبل حتى يبلغوا بهم أغراض الحياة من حيث السلام والأمن والدعة والعمل الصالح . لذلك كان الإيمان بفكرة التقدم بضعة من الإيمان بالخلود وكان من اليسير على مسلم أن يؤمن بفكرة التقدم ، وأن يدعو إليها منذ سمع بها في فرنسا ودافع عنها في مصر ، ووازن بينها وبين دينه فوجدها في بعض آيات الذكر الحكيم .

فكر قاسم أمين ملياً فأرى أن تطوراية جماعة بشرية رهن بتكوين هذه الإرادة العليا التي ذهب إلى ضرورتها فلاسفة التقدم . ورأى فوق ذلك أنه يجب على المصريين أن يدرسوا مساوئهم ومثالبهم حتى يعلموا كيف

يتقدمون . وقد اتخذ له شعارا هذه الآية الكريمة التي رآها تتفق والفلسفة الجديدة : « إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ » .
وعنده أنه ينبغي للكتّاب « أن يدرسوا زمانهم درسا تاما ،
ويقفوا على كيفية ارتباط حالهم بماضيهم وأخلاقهم وعوائدهم ومعتقداتهم
وسياستهم ، حتى يتبين لهم ما هم عليه بكيفية لاتقبل الشك . إن هذه الأمور
إنما هي العلل التي أنتجت تلك الحالة ، وإن تغييرها لا يكون بالصدفة ،
وإنما هو بتغيير يحدث في تلك العوامل المؤثرة إذ السبب والمسبب دائما
متلازمان عقلا وعادة . متى وُجد أحدهما وجد الآخر حتما » .

« وهذا نظام الله سبحانه وتعالى في العالم كله فليس في الكون شيء
وجد بلا موجد وسبب واضح أو خفي ، معروف الآن أو يكشفه المستقبل » .
آية « إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ » هي أساس
لذلك القانون . وبها يظهر للقارئ كيف توافقت شريعتنا مع العلم في هذه
الآية كما تتفق معه دائما لو كان القائمون بشئونها رجالا أكفاء يخدمونها بجد
 ويفهمونها بإصابة إدراك .

« على أن حالة الأمة في السعادة والشقاء ، أو التقدم أو التأخر ، ليست
حالة توجد أو تتغير بحكم الصدفة ، بل إنها نتيجة لازمة لا تتغير إلا إذا تغير
ما بنفس الأمة » .

« فإن كانت أمة نشيطة مترببة متمدنة كان لها الخط في الدنيا ، وإن كانت كسولة جاهلة ذات أخلاق رديئة كان لها الشقاء فيها » .
« والحالة الاجتماعية متى عرف كيف وجدت يعرف كيف تزول فهي لا تتغير أبداً إلا بحال آخر ، بمعنى أن إرادة الشخص أو إصدار قانون أو مائة قانون كل ذلك لا يؤثر فيها بشيء محسوس » .

« وعليه فإذا أراد من يهمهم إصلاح أمتنا من رجال الحكومة وأبنائها الذين يفكرون في الطرق اللازمة لإخراجها من حالها ونقلها إلى حال آخر أن يفعلوا شيئاً نافعا ، فعليهم أن يكشفوا لها الستار عن عيوبها جميعها مهما كانت مرة المذاق أو مخجلة وأن يربوها على التجميل بالعوائد الحسنة إن لم يكن التأثير على معاصريهم ، فعلى ذرياتهم من بعدهم » .

أرأيت كيف حاول قاسم أمين أن يوفق بين عقيدته المركزية وبين إيمانه الديني ؟ لقد وجد ضالته حين استروح نفحة من آى الذكر الحكيم فأدرك أن وراء الروح الإسلامى دافعا نحو التقدم ، وأن الله سبحانه وتعالى قد أمر عباده أن يغيّروا ما بأنفسهم حتى يصبحوا صالحين . ولا شك أن هذه عقيدة عليا من عقائد الإسلام . ولولاها لما استطاع محمد صلى الله عليه وسلم أن يغيّر من العرب فيجعلهم جميعا أمة واحدة تحت راية القرآن . كان الإسلام في بعض وجوهه ثورة على التقاليد والعادات والعقائد وكان شعار هذه

الثورة هي تلك الآية الكريمة التي سلفت . وهي هي التي اتخذها قاسم أمين شعارا لفلسفة التقدم وأراد أن يكون لها إرادة عامة بين أفراد الأمة حتى ينتقلوا من حال إلى حال .

ثم كان قاسم أمين يضيق ذرعا بمن يتقيد بالتقاليد والعادات مهما ساءت هذه التقاليد وظهر فسادها . وفي الحق لقد كان هذا نتيجة حتمية لمن اعتنق مبدأ التقدم . فالذين يذهبون إلى فكرة التقدم أو « التطور » ، والذين يعملون على إصلاح الجماعة التي هم فيها ، يحاولون دائما أن يتحللوا من العادات الخبيثة التي تحول دون التقدم . يسميهم الناس الذين ألفوا الأوضاع الأولى « مبتدعين » أو « مآفين » لكنهم في الواقع مصلحون يرون ما لا يرى غيرهم وهم بعد ذلك أعداء العادة يحاولون أن يحطموها كما حطم محمد الأصنام وكما حطمت الرسل من قبله عقائد القرون الأولى .

يقول قاسم أمين في مقدمة « تحرير المرأة » .

« سيقول قوم إن ما أنشره اليوم بدعة . فأقول نعم أتيت ببدعة ولكنها ليست في الإسلام ، بل في العوائد وطرق المعاملة التي يحمد طلب الكمال فيها . »
« لم يعتقد المسلم أن عوائده لا تتغير ولا تتبدل وأنه يلزمه أن يحافظ عليها إلى الأبد ، ولم يجرى هذا الاعتقاد في عمله مع أنه هو وعقائده جزء من الكون الواقع تحت حكم التغيير والتبديل في كل آن ؟ أيقدر المسلم على

مخالفة سنة الله في خلقه إذ جعل التغيير شرط الحياة والتقدم ، والوقفة والجمود مقترنين بالموت والتأخر ؟ » .

ثم ماذا بعد كل هذه الأفكار ؟ لقد كانت آثار التقدم المادى تظهر فى كل ناحية ذهب إليها فى هذا الوسط الفرنسى . حينما وطئ أرض فرنسا هاله ما رأى من آثار العلم . رأى الأبنية المشيدة ورأى آثار البخار ثم رأى الاقتصاد والسياسة والاجتماع قد أصبحت علوماً فبهره من ذلك ما بهره . كانت البيئة الأوروبية قد بلغت من التقدم المادى فى القرن التاسع عشر أضعاف ما بلغته فى القرون الثمانية عشر التى تقدمت هذا القرن . وكان الغنى وكسب المال ظاهراً فى كل ناحية من نواحي الحياة . وكانت الأرض جميعها قد تفتحت للعلم . فذهب الأوروبيون يجوبون أقطارها يستغلون البر والبحر ، ويستخرجون المعادن ، ويستنبطون الكهرباء .

لقد اضطرب شرق مسلم مثل قاسم أمين فى هذا الوسط وقرأ لمن تحدث عن الحرية وقرأ لمن تحدث عن التقدم فاعتنقهما مبدأين هامين من مبادئ الإصلاح . وإذا كنا قد بسطنا الكلام بعض البسط فى وصف البيئة الأوروبية أو الوسط الفرنسى فما كان ذلك إلا لنستجلى فكرتين هامتين اتخذهما قاسم أمين هما فكرة الحرية وفكرة التقدم . وعلى هاتين الفكرتين

تقوم هذه الدعوة الرشيدة التي دعا إليها . ولا بد لنا أن نذكر مبلغ إيمانه بهاتين الفكرتين حتى نقدره كمصلح اجتماعي . فقد كان إصلاحه الاجتماعي يقوم عليهما .

ثم لقد كانت الفكرتان مرتبطتين كل الارتباط . فكرة الحرية كانت عنده فكرة عامة وفكرة التطور كانت فكرة خاصة . كانت الأولى كما تكون العدسة أما الثانية فقد كانت كما تكون البؤرة من هذه العدسة . كانت الأولى دعوة شاملة اشترك فيها مع غيره من معاصريه ، أما الثانية فقد كانت إيمانا قويا لم يشاركه فيها كثير من معاصريه .

ذلك موجز للآثار التي تلقاها قاسم أمين حين مقامه بفرنسا . وهي الآثار التي استجاب لها حين نادى بالإصلاحات التي دعا إليها . لقد كانت شخصية موزعة بين خير ما كان في البيئة المصرية وبين خير ما كان في البيئة الفرنسية . وقد حاول أن يلازم بين البيئتين . وقد كان مسلما قوى الإيمان ومثقفا قوى الثقافة . ثم إنه كان مصري الوجدان لكنه كان أوروبى التفكير . ولعل النقاش الذى دار بينه وبين الدوق داركور أول ما أثار إيمانه كمسلم ، كما أنه كان أول ما أثار تفكيره كرجل مثقف . كان من بعض وجوه نقاشا بين الوجدان المصرى والتفكير الأوروبى .

بين قاسم أمين ودوق داركور

كان « الدوق داركور » من بين الفرنسيين الذين اعتادوا أن يزوروا مصر في الشتاء ليمتقلبوا بين أنحائها . زارها ثلاث مرات كما يزورها غيره من السائحين العابرين . فكتب كتابا في سنة ١٨٩٣ يحمل فيه آراءه عن مصر والمصريين^(١) . وكانت كتاباته سلسلة من المطاعن القاسية . فقد تناولت الجماعة المصرية من أخطأ نواحيها . وكانت صادرة عن تجربة قصيرة . ولم يكن باعثها الإخلاص ولا المروءة ولا حسن النية .

وما لبث قاسم أمين أن كتب كتابا آخر يردّ به على هذه المطاعن^(٢) . ألّفه بالفرنسية في الشهور الأخيرة من سنة ١٨٩٣ ، وأخرجه للناس في سنة ١٨٩٤ . وحاول قاسم أمين في كتابه هذا أن يرد على كل تجريح أتى به الدوق داركور . وكأنما كان هذا النقاش صورة من الكفاح بين الشرق

(١) L' Egypte et les Eyyptiens تأليف Le Duc d' Harcourt

(٢) Les Egyptiens-Reponse à M. le Duc d' Harcourt تأليف قاسم أمين

وبين الغرب ، وهو شبيه لما كان بين هانوتو والأستاذ الإمام . والكتابان معاً دراسة قوية لفترة من تاريخ حياتنا العامة ، لأن الدوق الفرنسى حاول بكل ما أوتى من قوة وضغن أن يصف مصر ، وأن ينقد نظم الحكم والأخلاق والعادات التى كانت عليها الجماعة المسامة . كما أن المستشار المصرى قد حاول أن يجلو هذا المجتمع فى صورته التى رآها . الدوق الفرنسى كان متشبعاً بمجملات من الآراء التى اتخذها بعض المفكرين الغربيين فى القرن التاسع عشر ، فحاول أن يطبقها على المصريين . والمستشار المصرى كان مؤمناً برقى العنصر المصرى ، وسمو الدين الإسلامى فى أصوله الأولى ، فحاول أن يدافع عن أهل وطنه ودينه وأن يردّ على المثالب التى اختلقها الدوق الفرنسى فى أحيان ، وصورها بحق فى أحيان أخرى .

نقول إن الدوق داركور لم يكتب كتابه عن مصر والمصريين لداعٍ من الإخلاص ولا المروءة ولا حسن النية ، لأن نقده كان قاسياً ، بحيث لم يقف مرة واحدة ليعطف على المصريين ، ولم يقل كلمة واحدة تبعث على حسن الظن بنياته . قام كثير من المصلحين فى أخريات القرن التاسع عشر ينقدون النظم القائمة يومذاك فى مصر . وكانت محاورات جمال الدين الأفغانى ، وكتابات الأستاذ الإمام آيات من السخط ، لكن آراءهما كانت سائغة ، لأنهما لم يصدرا فيما كتباها أو نشرها عن ازدراء للعنصر المصرى ، ولا عن احتقار

للحضارة الإسلامية ، بل على العكس من ذلك ، لقد كانا من الساخطين لأنهما حاولا أن يدفعوا بالمصريين والشرقيين في سبيل التقدم . ولكن الذى يميز كتاب الدوق داركور هو هذه اللفحة من التعصب الأعمى التى امتاز بها بعض كتاب الغرب فى ذلك العهد ، فهو لم يكتب كتابه طمعا فى الإصلاح ولا دعوة إلى التقدم ، وإنما كتبه ليبصر قومه أنه كان فى مصر مجال للسلب والنهب ، وأنهم أخطأوا السبيل حينما تركوا الأمر جميعا بين يدى إنجلترا .

فلنبحث كتاب « مصر والمصريون » بحثاً هادئاً ، ولنجمل لك ما فيه من الآراء حتى نرى إلى أى حد كان الدوق داركور على حق فيما ذهب إليه من نقد الجماعة المصرية فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر ، والكتاب صورة - قد تكون غير عادلة - لنواح من الحياة المصرية فى نهاية ذلك القرن ولا شك أن قوماً مثلنا يفيدون كثيراً من ذكرى هذه الدراسات ، بل لا بد أننا واجدون قطعاً تنوير البحث فى كتاب مثل هذا كتب عن مصر خاصة .

أول ما لحظه الدوق الفرنسى أن مصر لا تتمتع بخلق قومى واضح ، وأن فى المصريين ضعفاً قومياً عاماً . أما المجد الفرعونى الغابر فقد عفت آثاره ، وأما الأمة المصرية نفسها فقد عانت من الظلم ما نزل بها الى المستوى الأدنى من الحياة . وقد تدهور الخلق القومى منذ نهاية العصر القديم لما عانت البلاد

من الحكم الأجنبي ، فقد كانت في تاريخها الوسيط والحديث مسرحاً للغاصب الأجنبي . أما أبناؤها فقد كانوا من ضحايا القوة الغشوم . حكمهم المماليك -خمسة قرون فكان لحكومتهم أثر سيء ، لأنها باعدت بين أهل البلد وبين مناصب الحكم ، ولأنها عزلت الحكام عن المحكومين فأصبحت الفرقة بين الحاكم والمحكوم تقليداً سرى في نظم الحكم حتى أيام إسماعيل . أما الظلم الذي يعانيه الفلاحون فهو بليغ لأنهم يُسَخَّرُونَ من غير أجر ، ويعيشون في ظروف أتعس من ظروف العبودية الأولى . فليس الظلم هنا شيئاً خيالياً ، وإنما هو مظهر مادي يدل على ما وصل إليه الفلاح المصري من الضنك والفقر والفاقة ، ويدل كذلك على ما ورثه من القرون الأولى من الذل والهوان . كل ذلك فت في حياة مصر فجعلها جسماً ضعيفاً لا تتردد فيه روح القومية .

وعنده أن أشد ما أوهن الروح القومية عند المصريين إنما هو تهاونهم في التربية العسكرية ، فالمصريون ينقصهم النشاط العسكري العنيف ، وليس لهم عهد طويل بنظام الجندية . وحين أهملوا تربيتهم العسكرية فقدوا روح المغامرة واكتفوا بالخلق الزراعى الذى وثق بينهم وبين الأرض التى يزرعون فأصبحوا وهم لا يفكرون فى شىء ما خلا الأرض ، وضاعت آمالهم لأنها اقتصرت على ذلك الوادى الضيق الذى يمتد على ضفتى النيل . أما الروح الحربى الذى بدأه محمد على فى تكوين الجيش فقد كان موقوتاً بالانتصارات

التي حازها ، فقد وهن الجيش بعد محمد على فأصبح هزيعا ، وكان انتصار الإنجليز عليه محققا ميسورا .

وانتقل الدوق بعد التحدث عن القومية في مصر إلى نقد الطبقات الاجتماعية فيها ؛ وهو أرستقراطي لا تستقيم الجماعة عنده إلا إذا كان فيها طبقات اجتماعية تختلف كل واحدة عن الأخرى . وهو يرى أن النظام الأوروبي في عصره يكاد يكون كاملا لأن كل طبقة من طبقات المجتمع تؤدي واجبات خاصة ، وأن الذي يحدث الفروق بين كل طبقة وطبقة إنما هو اثنتان : الوراثة والتربية . فكل فرد من أفراد الطبقة العليا يورث أولاده وحفدته ما بلغ من مجد وما أصاب من مال . أما في مصر فإن الدوق داركور لم يجد مثيلا للطبقات في المجتمع الأوروبي : لأن صلات الأسرة المصرية ضعيفة واهنة : أضعفها الطلاق وتعدد الزوجات والرق ، ولأن توغل الأجانب في الحكم لم يسمح للمصريين أن يكونوا منهم طبقة أرستقراطية حاكمة ، ولأن المرأة قد أهملت التمتع بسلطانها على ما تملك فأصبحت متاعا يملكه الرجل ، ولأن الأرض جميعا كانت ملكا للوالى حتى سنة ١٨٧١ ، ولم توزع حين وزعت بقسطاس عادل فقد أعطيت لمن استطاع أن يدفع مقدما ضرائب ست سنوات . كل ذلك لم يسمح للطبقات في مصر أن تتكون ، ولا أن تدرك كل منها ما هي مطالبة به من الواجبات والخدمات في الحياة العامة .

فإذا كانت أوروبا قد عانت من وجود اختلاف بين طبقاتها فقد عانت مصر من أنها لم تعرف نظام الطبقات على الإطلاق .

ويصل الدوق داركور بعد ذلك إلى الفصل السادس من كتابه فيعالج موضوعا هاما لعله هو الذى أثار قاسم أمين ، بل لعله هو الذى دفع قاسم أمين إلى الكتابة عن المرأة .

لقد لاحظ في جولاته أن تحجب النساء في مصر شائع مطلق عند الأغنياء ، وأن المنازل المصرية نفسها قد بنيت لتحجبن . ففن العمارة في مصر قد مضى في أطوار متعاقبة . لكنه في كل طور منها كان متأثرا بفكرة الحریم : هذه المداخل الملتوية ، وتلك المشربيات التى تطل على حوش داخلى ، وذلك التخطيط الذى يفصل قسم الحریم عن قسم الرجال ، كل ذلك يدل على أن الحجاب في مصر كان بالغ التأثير ، وكل ذلك يدعو إلى التفكير في أسباب الحجاب .

وقد رأى السبب الاجتماعى للحجاب في حالة الخوف والذعر التى نشرها النظام الحكومى المستبد في مصر . ذلك بأن الجماعة المصرية كانت تقوم في نظره على فكرة واحدة هى الخوف : خوف المظلوم من الظالم ، وخوف المحكوم من الحاكم ، وخوف الضعيف من القوى . وكان الرجل يخفى كل

ما يملك لأنه مستضعف تهدده السلطة المادية الجائرة . وكانت المرأة من أنواع المتاع الذى يخفيه الرجل . وقد قضى على المرأة بالحجاب خوف الحاكم المستبد الظالم . وذلك الذى كان يخفى المال فى أغوار الأرض كان يخفى المرأة فى أعماق البيت . فهو فى كلا الحالين يخشى على شطر مما يملك ، وهو يعيش فى حالة من الفرع تهدده القوة العشوم ؛ والقوة العشوم كانت تغتصب المال كما تغتصب النساء . إنه يجاهد فى حياته ليمقى ؛ وهو فى جهاده هذا يحرص على زوجه كما يحرص على الفضة والنضار . ذلك إذن تفسير للحجاب الذى ضربه الرجل على المرأة ، وهو تفسير لا يمت إلى الدين بأى علاقة من العلاقات .

أما السبب الدينى لحجاب المرأة عند دوق داركور فهو أن الإسلام قد أمر به ؛ ذلك بأن الإسلام فى نظره قد تدخل فى كل العادات الشخصية التى يتبعها المسلمون والمسلمات . فهم مقيدون بأوامر دينهم ونواهيه فيما يقل أو يجل من الأمور . والدين يملئ عليهم ما يفعلون فى حركاتهم وسكونهم ، وفى ملبسهم وما كلهم . وقد أمرهم بالحجاب ؛ فكان ذلك أساساً من أسسه . وحيثما تحجبت النساء انحطت المرأة المسلمة وأصبحت فى معزل عن الحياة العامة ، وعاشت فى جو تغشاها الخرافات وتتجلى فيه الغرائز الدنيا . بل لقد أصبحت هذه الخرافات وتلك الغرائز من بين الغايات التى يعيش لها المجتمع المصرى ، لأن الأطفال قد نشأوا فى هذا الجو الفاسد الذى تملأه القصص البذيئة والعادات الخنثة . وفى مثل هذه الحياة الاجتماعية القاصرة لا يستطيع الذين

أوتوا شيئاً من العلم الحديث أن يفيدوا مما تعلموا . حتى الفتيات اللاتي تعلمن في مدارس أوروبية أسان فهم الحياة في أوروبا ، فقرأن أسوأ الروايات وأسان التصرف فيما أوتينه من حرية ضئيلة محدودة .

ويبدأ دوق داركور كتابه الثاني عن مصر والمصريين بحديث عن تأخر الحركة الفكرية في مصر ، وهو حين يعرض لهذا الأمر يعود إلى الإسلام ثانية . لكنه يعود في هذه المرة أشد عنفاً وأكثر تجنياً .

والدين عنده هو السبب الأساسي في هذا التأخر الذي لحظه في كل بلد إسلامي . وقد ادعى أن الإسلام لا يحض على البحث في العلوم غير الدينية ، لذلك احتقر المسلمون علوم الغرب ، واعتقدوا أن القرآن قد حوى بين دفتيه علوم الأولين والآخرين وأن كل ما عداه باطل . بل هو ينكر على العرب الأولين أن كان لهم مدينة خاصة ، لأن المدنية لا تقوم إلا على أساس علمي ، والعلم عندهم لم يكن يخرج عما أتى به القرآن ، لذلك أمر عمر بإحراق مكتبة الاسكندرية ! ثم إن العرب لم يحاولوا استكشاف علوم الدنيا لأنهم تعصبوا لأصول دينهم وآمنوا بالقضاء والقدر ، لذلك قامت مدنتهم على قوائم المدينات العتيقة . فالنسطوريون كانوا هم أئمة الطب في الرها ، والإغريق هم الذين أدخلوا الرياضة في ممالك العرب ، والفن البيزنطي هو الذي أوحى إليهم

أصول الفن العربى . وبالجملة فقد كان الشرق مشبعاً بآثار المدينيات القديمة حينما غزاه العرب ، فما استولوا عليه حتى ظهرت مخلفات هذه المدينيات . أما شبه الجزيرة العربية نفسها فلم تكن صاحبة مدينة خاصة نستطيع أن نسميها « المدينة العربية » .

تلك بعض الآراء التى ضمنها دوق داركور كتابه عن « مصر والمصريين » وقد أسلفنا أن الدوافع التى دفعته إلى كتابة كل ذلك لم تكن مخلصه ولا شريفة . بل لقد كان يكتب وبصره يشرب إلى تلك الأسلاب التى أقبلت عليها إنجلترا دون فرنسا . ولكن بعد كل الذى نقلت إليك ، وبعد أن أحسست بالضعف الذى يثيره مثل هذا النقد القاسى ، وبعد أن رأيت أن الدوق داركور جاهل بما فى الإسلام من قوة ، ألا ترى أنه على حق فى كثير مما وصف من آثار الجهل والفاقة ، ثم ألا ترى معنى أنه على حق فيما وصف من ظلم يمتد إلى أغوار الحياة المصرية نفسها وفيما صور من آثار العبودية ، وفيما نقد من اتجاهات التربية والتعليم والأدب ، وفيما بين من هضم حقوق النساء ؟ إنه على حق فى كل ذلك ، لكنه مخطئ حيث يبدى أسباب هذا الظلم والتأخر ، وحيث يتفلسف فيه تحدث عن الدين حديث الواثق المدقق . وفى الحق إنه لم يبحث أصول الدين كما كان ينبغى ، بل لقد قفز إلى أحكام طائشة كان أجدى عليه لو تراث فى إرسالها قليلا .

نعم كان دوق داركور جاهلاً بأسس الدين الإسلامى وبتاريخ العرب
وبفضل الثقافة العربية فى تاريخ المدينات العامة ، لكن قيمة كتابه ليست
فى ذلك ، وإنما هى فى تصوير الحياة التى رآها والتعبير عن الآثار النفسية
التي تلقاها . ولعله كان جاهلاً كذلك بأن المصريين أنفسهم كانوا قد أحسوا
بالنقص الذى يتحدث عنها ، وأنهم كانوا على أبواب نهضة فى السياسة
والقانون والعلم والتربية والخلق ، وأنهم ثاروا بحكومة الشراكسة وطالبوا
بالحرية والمساواة فى سنة ١٨٨٢ ، وأنهم نالوا حقهم الدستورى قبل ذلك
بقليل ، وأن طبقة مثقفة من أمثال قاسم أمين كانت تنظر إلى الأمام بينما كان
الدوق الفرنسى ينظر إلى الوراء .

قرأ قاسم أمين كتاب الدوق داركور فأصيب بحمى لازمته عشرة أيام ،
لأن كل هذه الآراء التى أتى بها الدوق الفرنسى كانت مثيرة لحواسه جميعاً .
وقد كان لا بد لرجل مثله أن يصاب بمثل تلك الحمى ، لأن كل ذلك كان
طعناً فى المصريين والمسلمين ، وقد كان مصرياً مسلماً فخرّ فى نفسه الألم حزا
وطغنت على حواسه أزمة عصبية حادة . وما لبث الألم النفسى أن أصبح مادياً
فأثر فى جسمه تأثيراً بالغاً أزمه الفراش . ولا بد أنه قد وقعت كل كلمة من
كلمات الدوق فى نفس قاسم أمين موقع الإهانة التى وُجّهت لشخصه هو

نفسه . وما دام قد أحس بهذه الإهانة فقد ثارت نفسه ، فراح يعرض آراء الدوق على أصحابه ، وراح يقلبها في نفسه على وجوها ، وراح يبحث وينقب عن مدى صحتها ، وراح بعد كل ذلك يجمع بحوثه في كتاب يرد به على الدوق الفرنسى فألف كتابه « المصريين — رد على الدوق داركور » فى خلال أشهر قليلة .

وشعور آخر أثارت فى نفس قاسم أمين قراءة هذا الكتاب ، فقد كان الرجل مؤمناً بكثير من المثل العليا التى انتهت إليها الجماعة المستنيرة فى مصر ، وحينما قرأ هذا الكتاب أحسّ بأن آماله الكبار التى كانت تجول فى نفسه كادت تُنتزع من أساسها انتزاعاً . وقد كان حفيّاً بمثل هذه الآمال ، يرى أن قومه مقبلون على تحقيقها ؛ فخشى أن يكون هو وأصدقاؤه مخدوعين فيها ، وخشى أن تكون الجماعة المصرية حقاً قد قضى عليها التحلل الاجتماعى الذى وصفه الدوق . وساورته تلك الفسكرة كالألم المبرح ، ونهض إلى الرد عليها كما لو كانت قد لدغته أفعى . فقد كان هذا التشكك تشككاً فى وجوده فى نفسه . وهو لا يستطيع أن يعيش فى أمته إلا إذا آمن بأنها سائرة فى سبيل التقدم . فدفعه عن المصريين إنما هو دفاع عن كيانه : دفاع عن آماله فى الوطن والدين . ثم هو بعد ذلك بحث يحاول به أن يطمئن الشك الذى كاد يتسلل إلى نفسه . إنه تبرير لوجوده وإحياء للرجاء الذى كاد يخبى وبعث للروح التى كادت تنجو .

وهو يقول حينما يصف مشاعره عند قراءة الكتاب « لقد وجدت فيه من القسوة ما زاد على كل حد . وكادت تنزع قرائتى إياه كل آمالى . ثم عادت نفسى فاطمأنت رويدا رويدا ففكرت طويلا فى كل ما قال عنا . بحثت كل المسائل التى بسطها وكل الأحكام التى انتهى إليها ، وسلخت نفسى من شخصيتى المزدوجة بوصف أنتى مسلم ومصرى ، فحللت الموقف من غير ميل ولا هوى مسترشدا فى ذلك بالحق وحده . ولذلك فقد عبرت عن عواطفى هنا كما يفعل الغريب الذى يعلم من أمر مصر ما أعلم ويحكم عليها بلا تحيز » وكذلك حاول قاسم أمين أن يعد دفاعا منطقيا عن مصر والمصريين والإسلام والمسلمين لكنه فى نفس الوقت بحث عميق يحاول به أن يعيد إلى نفسه اطمئنانه .

بدأ قاسم أمين رده على دوق داركور وهو مؤمن بمبدأ التقدم ، أى أنه مؤمن بأن كل جماعة من الناس تتطور إلى غرض أسمى ، وأنها فى تطورها قد تلقى أخطاء ، وقد تعانى الظلم والجهل والفقر ، لكنها على أى حال سوف تتغلب على كل ذلك ، فتصل فى يوم من الأيام إلى ما جعلته أمامها من أغراض سامية . ومصر نفسها كانت فى آخر القرن التاسع عشر تعاني كثيرا من هذه الأخطاء التى صادقتها فى انتقالها من طور إلى طور ، فإذا كانت مصر فى حالة من الجهل والفقر ، فقد مرت فرنسا بمثل هذا الطور ، لكن الماضى

لم يقف حجر عثرة دون تقدم الفرنسيين ، ولن يقف كذلك حجر عثرة دون تقدم المصريين . كانت فرنسا في السنين التي سبقت الثورة الكبرى تعاني من النقائص ما هو معلوم ، فقد كان الزراع فيها مرتبطين بالأرض يباعون معها ويشترون كما يباع الرقيق ، وكان للمولى من الحقوق في عهد الإقطاع ما لم يحلم به أمير شرقي ، وكان الأمر في القضاء رهينا بالقوة الغشوم ، وكان أسلاف الفرنسيين يسامون الخسف والعذاب لأتفه الأمور ، وكان النبلاء الفرنسيون يحتقرون التجارة والصناعة والعلم والفن . لكن كل ذلك لم يمنع الأمة الفرنسية من أن تصبح أمة عظيمة ، فلم يری دوق داركور أن ماضيها سوف يحول دون التقدم الذي نرجوه ؟

ثم هو يحلل المجتمع المصري ، فيبحث في شئون الفلاح والحكومة والدين والنساء والخلق والعلم والأدب ، وله في كل شأن من هذه الشؤون رأى ينبغى أن نجمله لك .

إن الذي افتقده الدوق داركور في الجماعة المصرية من عدم وجود الاختلاف بين الطبقات آية من آيات كياننا الاجتماعى . ويرى قاسم أمين أن الإسلام قد سوّى بين الناس جميعا ، وليس من قواعد الجماعة المسلمة أن يرث الرجل امتيازاً خاصاً لأنه ولد من أسرة أو طبقة خاصة . بل لقد سبق

الإسلام كل النظم السياسية الثورية بألف سنة أو يزيد حين أنكر امتيازات الميلاد أو الثروة ، وهو من بين الأديان جميعاً يفسح المجال لكل ذى عمل أن يحسن عمله فيرقى من أدنى الدرجات حتى يبلغ أسماها . ثم ليس في الإسلام طبقة تمثل السلطة الروحية التى كانت للكنيسة ، وليس فى الجماعة المسلمة فئة تتمتع بالسلطة الدينية على حساب الآخرين . وللفقراء والمحرومين حق معلوم فى أموال الأغنياء ، فلهم جزء من أربعين جزءاً من كل مال منقول . وهذه ضريبة لو أحسن القيام عليها لاستطاع الفقراء أن يعيشوا فى هناءة إلى جانب الأغنياء . ومثل هذا النظام يوفق بين المصالح المختلفة ، وهو فى مجموعه يمثل الاشتراكية الحقيقية . ثم قد انحدر إلينا من تعاليم الإسلام ما يؤيد دائماً الإخاء والمساواة ، فقد وقف على بن أبى طالب أمام القاضى الذى عينه هو نفسه ؛ وخطب عمر لما أن ولى الخلافة ، فطلب الى المؤمنين أن يقولوا : إذا رأوا منه اعوجاجاً . وكل هذه ميزات ينبغى لأوروبا أن تتعلمها من الإسلام وينجب على فقهاءها أن يوفقوا بينها وبين بيئاتهم الخاصة .

ذلك النظام الاجتماعى والسياسى قد هوى فى حال من الانحطاط والتدلى حينما اضطرب المسلمون وأصبح الأمر فوضى ليس له أساس من علم ولا من دين . فقد قام على الجماعات المسلمة طغاة لا يعرفون إلا صالحهم الشخصى . وقد غبرت مصر قروناً يستغلها وحوش فى صورة آدميين ، أقبلوا عليها من كل

بقاع الأرض ، فكانت مسرحاً لفظائع الظلم والقسوة ؛ لكن الحكومة الحديثة فيها قد قامت بكثير من الإصلاحات ، فقد ألغت الكرباج والسخرة ، وحددت مواعيد دفع الضرائب ، وثبتت مالية البلد ونشرت التعليم . وكل هذه الإصلاحات سوف ترجع بنا إلى النظام الأول الديمقراطي .

ويرد على الدوق داركور فيما يختص بالمرأة المسلمة فيقول : إن حظها قد ارتبط بحظ الرجل ، والذي أثر في مركز الرجل في عصور الجهالة والظلم هو نفسه الذي أثر في مركز المرأة ، وليس الدين هو الذي أنزل المرأة ذلك المنزل الوضيع ، وليس هو الذي وسمها بميسم المهانة والصغار ، لأن الإسلام قد منح المرأة المسلمة من الحقوق ما لم تكن قد مُنحته المرأة الفرنسية حتى آخر القرن التاسع عشر . « فالمرأة المسلمة - حتى إن تزوجت - تحتفظ بحقوقها المدنية . فلها الكفاءة شرعاً على أن تتصرف في أمورها دفعاً أو منعاً من غير أن تستصدر تفويضاً من زوجها أو من المحكمة . إنها تستمد كفاءتها هذه من شخصيتها هي نفسها ، وليس للزوج عليها إلا سلطان معنوي محسب » .

وهو لا يرى في تعدد الزوجات ولا في الطلاق هذه الشناعة التي يراها كتاب الغرب لأن عدداً كبيراً من رجال المجتمع الغربي تنقسم زوجاتهم وخليلاتهم ، وليس هذا إلا تعدداً للزوجات ، لولا أنه تعدد غير شرعى ، ينتج أطفالاً بلا آباء ، ويترك زوجات بلا أزواج ، ويطعم الفتيان والفتيات بطابع

الجريمة . وقد أدرك المشرع الإسلامى كل هذه الأخطار ، فخلل تعدد الزوجات والطلاق إذا فسدت العلاقة بين الزوجين . على أن الأصل فى الدين أن يكون للرجل زوجة واحدة ، وعلى أن يبقى عليه زوجته لأنه قضى على صاحب الزوجتين أن يكون عادلاً أشد ما يكون عدلاً ، واعتبر الطلاق حلالاً ، لكنه حلال مكروه كالحرām .

ويحاول قاسم أمين أن ينقد حال المرأة فى أوروبا ، وهو يورد إحصاء قاسياً عن عدد المومسات فى فرنسا ، ويدلل على أن ربع المواليد فيها كانوا غير شرعيين ، وأن مائة وخمسين ألفاً منهم قتلوا وهم يخرجون من بطون أمهاتهم ، حتى ثار جول سيمون بهذه الحالة المزرية . أما السبب فى كل ذلك فيرجع الى الاختلاط الشديد بين الرجل وبين المرأة . فالمرأة الأوروبية تسقط دائماً فى حمأة الرذيلة ، لأنها تجد الظروف مهيأة لها . فهناك الفسح الطويلة التى يقضيها الرجل والمرأة وحدهما على الحشيش الأخضر البراق ، وهناك حمامات البحر حيث تلبس المرأة كل ما يبدى تقاسيم جسمها ، وهناك تلك الحفلات الصاخبة ، حيث يصطحب الصديق زوجة صديقه ، وهناك الولائم الفخمة حيث الخمر تعقد الألسن ، وحيث تلتف الساق بالساق ، وتضطك الأقدام بالأقدام تحت الموائد ، ثم هناك بعد كل ذلك المراقص حيث تلبس النساء من الشياىب الشفافة ما يبلغ إلى تحت الأكتاف . تلك الصور المتهتكة

الباريسية التي ذكرها قاسم أمين هي التي أنتجت ذلك التحلل الخلقى فيما يختص بالمرأة الفرنسية ، وهى صور يجب أن نذكرها نحن حينما نعالج رأيه فى الحجاب .

وعنده أن وجهة النظر نحو المرأة تختلف عند المصريين عن ذلك كل الاختلاف . فالمصريون يؤمنون بأن الفضيلة مثل معنوى أعلى يضجى فى سبيله بكل ملذات الدنيا . وقد استطاع المسلمون أن يضحوا بملذات الدنيا فى الألف والثلاثمائة سنة التى عاشوها على ظهر الأرض وقد وثق كل ذلك من بناء الأسرة ، فمنعنا كل دخيل من أن يفسد علينا حياتنا الخاصة وطهرنا دورنا مما قد يفتن نساءنا .

وهو يفسر قواعد الإسلام الخمس ، ويثبت أن الإسلام دين فيه بساطة ، بحيث لم يتغير فى مئات السنين التى عاشها على ظهر الأرض . أما القرآن فهو كتاب خلقى خالص تحس فى آياته فلسفة واقعية فكرية ، كما أنه ينطوى على مبادئ إنسانية تؤثر فى الاجتماع والتشريع . والقرآن هو الذى خلق من أمة بدوية شعباً قوياً منظماً ، وهو الذى ثبت فى نفوس المسلمين وحدانية الله ، وأشاع بينهم الإخاء والمساواة ، وألف بين قلوبهم بالصدق والكرم والإخلاص والأمانة والتسامح .

ولكن ألا يزال المسلمون مسلمين حقا كأول ما بدأوا؟ كلا ! فهل الإسلام يأمر بالتهاون والانقسام والحقد والهوى والكسل والجهل والتعلق بالخرافات وكل ما نلقاه في مصر من تلك المساوئ؟ هل الإسلام هو الذى منع علماءنا من دراسة الرياضة والجغرافيا والكيمياء والطبيعة والفلك؟ هل الإسلام هو الذى أسلم المصريين لجماعة من الطغاة المستبدين؟ وهل سمح الإسلام لهم أن يعبدوا صنما فى صورة إنسان؟ لقد كان المسلمون عظماء حقا حينما تمسكوا سياسيا بالنظام الإسلامى ، وحينما بنوا كيانهم الاجتماعى على الخلق الشديد وفى الوقت الذى تخلوا فيه عن تلك الأخلاق بدأت الكوارث التى تربصت لهم فى تاريخهم الحديث .

أما العلاقة بين الإسلام وبين العلم فقد عاجلها قاسم أمين فى فصل قائم بذاته ، وهو يرجع الدوق الفرنسى إلى كتابات المستشرق الفرنسى سنديو . فالإسلام لم يعترض تطور العقل الإنسانى ولا تقدم العلوم ولا الآداب . ولم يحل دون استكشاف الحقائق العلمية وقد مضت فترة كان العلماء المسيحيون ينقلون العلم عن العلماء العرب . وفى القرآن آيات تحض المسلم على أن يفكر فى خلق السموات والأرض ، وأن يبحث ماهية هذا العالم والعوالم الأخرى . وإما عاق التقدم قوم من الجهلة الذين حاولوا تفسير القرآن حسب ما يمليه عليهم الهوى ، وعند ذلك تسربت إلى الدين فئة من الأوهام والخرافات هى

التي يحسبها السائحون من أصول الدين ، وليست في الواقع من الدين في شيء .
وسياتي يوم تجتمع فيه الإنسانية تحت راية الإسلام حينما يتبينون أنه دين العلم
ودين السياسة ودين الاجتماع .

ويبلغ قاسم أمين الفصل الأخير من كتابه حيث يتحدث عن «أوروبا»
وهنا تشتعل نفسه اشتعالا ، لأنه يدافع عن بلاده بكل قطرة من قطرات دمه .
والفصل في نفسه آية من آيات الوطنية لأنه صرخة من فؤاد مفزوع ، ولأنه
يدين لك مدى السخط الذي كان يحسد قاسم أمين على المنشآت الأوروبية
التي حاول أهل الغرب أن يفسدوا بها أهل الشرق . هي صرخة داوية من
صرخات السخط على الحاكم المختلطة والامتيازات الأجنبية وعلى العبث الذي
لازم كل ذلك . ولن يحدثك عن كل ذلك مثل مستشار خبير .

ويرى قاسم أمين أن حكام مصر في الزمن الحديث قد حاولوا أن يسيروا
بالبلاد نحو التقدم المنشود . لكن الشوط الذي قطعوه قصير ، لأن أوروبا هي
التي أقامت لهم العثرات في طريقهم . أوروبا هي التي حاولت دائما أن تؤيد
مصالحها ، وأن تنبذ مصالح مصر ، ومصر نفسها أصبحت لعبة لعبت بها بلاد
الغرب . فالقنصل في بلادنا يكونون ممالك مستقلة تحمي الجرمين واللصوص
وسفاكي الدماء من رعاياهم . وعلى الرغم من أن مصر تعاملهم بأكثر مما

ينبغي من التجارة والاحترام ، فإنهم لم يجدوا سبيلا للإساءة إليها إلا سلكوه ، محاكمهم تعتدى على محاكمنا ، وتجارتهم مفروضة علينا ، لأنهم عارضوا في تعديل تعريفتنا الجركية ، ورعاياهم يعيشون فى الأرض فساداً ، وينعمون بأكثر خيرات الأرض دون أن يدفعوا ضريبة واحدة . وهكذا نحتمل نحن هذه المساوىء التى يسمونها امتيازات ، لكنها فى الواقع لم تكن إلا سلاسل تقيد حركاتنا . وكيف يستطيع وطن هذا شأنه أن يسير نحو التقدم ، مادام كل ما فعله رهيننا بأشارة تتلقاها من أى بلد من بلاد أوروبا ؟ .

تلك خلاصة دفاع قاسم أمين ، لعلك قد رأيت فيها وجهها من وجوه القومية المصرية فى آخر القرن الماضى . فإذا كان الدوق داركور قد بصرنا بكثير من المساوىء التى عانت منها الجماعة الصرية منذ خمسين سنة ، فإن قاسم أمين قد وصف لنا الأمثلة العليا التى كانت تحدو هذه الجماعة ؛ الدوق الفرنسى كان يصف الواقع ، والمستشار المصرى كان يعترف بهذا الواقع ، لكنه كان ييسط لنفسه ولأهل وطنه ذلك الأمل العريض . وسوف يكتب قاسم أمين بعد ذلك عن كل تلك المساوىء ، وسوف يدعو إلى إصلاحها بكل ما أوتى من قوة الإيمان ، لكن بدء تفكيره فى الإصلاح هى هذه المناقشة الكتابية الحادة التى رمتها فى جنبات الشك حيناً ، لكنها كانت مقدمة لبناء اليقين .

المصلح الاجتماعى

خرج قاسم أمين من المحنة التى عاناها ، وقد تفتحت عيناه على كثير من مساوئ البيئة المصرية . وكانما قد استيقظت حواسه جميعاً بعد أن رد على الدوق الفرنسى . وتكونت نفس المصلح الاجتماعى منذ ذلك الحين . ولقد تهيأ له أن يكون مصلحاً اجتماعياً لما توفر له من الشجاعة والصدقة والإحساس المرهف . فكل هذه من لازمات المصلحين . ثم لقد كان كما أسلفنا رجلاً عنيداً يتشبث بالفكرة ولا ينتنى لرأى . لذلك لم يهن فى سبيل الدعوة التى دعا إليها بل ازداد بها تمسكاً . ثم لقد كان حرّاً يمتق التقاليد الفاسدة ويرى من حقه أن يدل أهل عصره عليها . فقاسم أمين من كل ناحية من نواحيه قد تهيأ ليكون صاحب مذهب وصاحب فكرة ، وقد تهيأ ليدعو إلى مذهبه وفكرته ، وقد تهيأ ليلقى فى ذلك كل العنت .

فى سنة ١٨٩٤ أتم رده على الدوق داركور ولعله استنفد كل ما أوتيته

من الحجب في هذا الرد المجهد . فقد تطور تفكيره بعد ذلك تطوراً ظاهراً .
 وإذا كانت حياته وحدة خاصة فقد كانت السنوات الأربع بين سنة ١٨٩٤
 وسنة ١٨٩٨ هي فترة الانقلاب في هذه الوحدة . تلك السنوات الأربع هي
 عصر الثورة أو عصر التحفز للثورة . وبعد أن كان يتخذ خطة الدفاع أمام
 الدوق الفرنسي إذا هو يتخذ خطة الهجوم أمام البيئة التي عاش فيها . ولم
 ذلك ؟ لأنه في رده على الدوق داركور لمس كثيراً من العيوب والنقائص التي
 اضطر إلى الرد عليها . أحس أن المصريين في حاجة إلى الخلق القويم ، وأن
 شعورهم القومي في حاجة إلى التثبيت ، وأن أولادهم وبناتهم في حاجة إلى
 التربية . أحس بأن الدوق داركور كان على حق في بعض ما وصف من
 مظاهر الاضمحلال الخلق والمادى . وظل أربع سنين يدرس هذه المظاهر ،
 وينتقب عن هذه النقائص ، وكان خلال ذلك يكاد يسجل دراسته بأن يكتب
 مقالات في المؤيد يضمنها كل ما شعر به وفكر فيه . فجاءت هذه المقالات
 وكأنها دراسة متسلسلة لكل أمراضنا الاجتماعية . والحق أنها بعد خمسين
 سنة لا تزال تصور بعض أمراضنا الاجتماعية التي لم نتخلص منها بعد .

وينبغي أن نردد هنا ما أسلفنا عليك من فكرة قاسم أمين في التقدم
 ومن إيمانه بالآية الشريفة : « إِنْ لَّهِ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا
 بِأَنْفُسِهِمْ » ، ومن دعوته أبناء جيله إلى دراسة عيوبهم ونقائصهم ، ينبغي

أن نردد كل ذلك لأنه هو نفسه قد اتبع هذا الأسلوب عند ما بدأ يكتب مقالاته في المؤيد . فقد حاول فيها أن يضع السبب إلى جانب النتيجة ، والعلّة إلى جانب المعلول ، والداء إلى جانب الدواء . وكان في كل ما كتبه ينم عن ثقافة خاصة واسعة المدى أملت بخير ما في ثقافة الشرق وما في ثقافة الغرب .

نقول كانت هذه فئة من المقالات كتبها قاسم أمين في المؤيد ولم يذيلها باسمه وظهرت تباعاً بعد سنة ١٨٩٤ . وضع بعضها تحت عنوان « أسباب ونتائج » وكتب بعضها الآخر تحت عنوان « حكم ومواعظ » . والمجموعة الأولى تشمل أربعة عشر مقالا ، والمجموعة الثانية خمس مقالات فقط . والمقالات التسعة عشر تدل على نشأة قاسم أمين كمصلح اجتماعي . وهي مقدمة لما كتبه بعد ذلك عن المرأة . فإذا أردت أن تدرك العناصر التي تسرى في هذه المقالات التسعة عشر وجدت أنها ثلاثة : أولها حول المال — وذلك في المقالات السبع الأولى ، وثانيها حول التربية وذلك في المقالات السبع التالية — ثم ثالثها حول الوظيفة وذلك في المقالات الخمس الأخيرة ونريد أن نقف وقفة قصيرة عند كل واحد من هذه العناصر الثلاثة .

تحدث في المقالات السبع الأولى عن الحالة الاقتصادية في مصر وكان يحاول أن يوازن بين المال في مصر والمال في أوروبا . وهو يثبت أن مصر بلد فقير تضرب الفاقة بين أهلها كما تضرب العلة في جسم المريض . أما الفلاحون

فهم يعيشون على الشيء التافه الذى لا يكاد يقوم بأودهم ؛ وأما التجار والصناع
فهم لا يملكون من المال ما يجعلهم فى صفوف المالمين ؛ وأما الموظفون فهم طبقة
تدعى اليسار وماهى بذات يسار . وطبقات المصريين جميعاً تعيش فى ضنك
مالى متصل ، لا تعرف كيف تصرف المال ، ولا كيف تستخدمه فى التجارة
والصناعة ، ولا كيف تستغل الأرض ؟ والمصريون بعد ذلك لا شغل لهم
إلا الإشراف على ميدان التنافس الاقتصادى ، يعجبون بهذه الأمة حيناً
ويهزأون بتلك الأمة أحياناً ، كأنهم عالم من كون آخر أتوا إلى هذه الأرض
مستقرجين .

ولعل قاسم أمين كان من أول الذين فرقوا بين العمل الحر المثمر وبين العمل
الحكومى الذى يدور فى نظام رتيب يكاد يخلو من الإنتاج . وكان كذلك
من أول الذين أرادوا فتح أبواب الأمل للناشئين المصريين . وقد كان
يدرك أن مصر مقبلة على عصر تضيق فيه وظائف الحكومة حتى لا يوجد محل
للمغامرة والطموح . وهنا تلمح رسالة الجامعة المصرية فى أصلها الأول . وسنرى
أن قاسم أمين قد أدرك فكرة الجامعة على أساس العمل الحر ، والإنتاج
الطليق .

ثم هو ينساق فى حديث « المال والثروة » فيتحدث عن الوقف ونتأججه
ولعله كذلك كان أول من عالج الوقف من حيث الشريعة ومن حيث

القانون ، ومن حيث أنه عرف جرت به العادة عند كبار الملاك في مصر . وهو يذهب الى أن الأصل في الوقف أن يكون « تجرد الشخص من أملاكه » وتخصيصها في حياته أو بعد موته لعمل خيري « وهو عمل بهذا الوصف لا يصدر إلا عن نفس طيبة وعواطف شريفة وأميال بارة وفكر عال » . لكن الوقف من حيث أنه عرف جرى به العمل في مصر غير الوقف كما قرره الشريعة . فالوقف عنده لم يؤدّ وظيفته لأن الآباء الأغنياء أرادوا أن يستخدموه في غير ما وضع له . وصار أول قصد للواقف أن يحبس المال لا لفعل الخير ، بل ليحول بين ورثته وبين تبديده . فنتج من ذلك طبقة من الأبناء السفهاء الذين يعتمدون على الوقف كل الاعتماد . هذا الى ما يشوب الوقف من الإسراف وسوء الإدارة . وقد اقترح قاسم أمين في سنة ١٨٩٤ أن تحل الأوقاف إن لم تنظم . وفي سنة ١٩٤٤ نوقش مثل هذا الاقتراح في مجلسي البرلمان !

فإذا بلغ المقال الثامن من « أسباب ونتائج » تحدث عن التربية . ويروعك من مقالاته في التربية أنه بدأ فيها وكأنه كان مريباً توفر على دراسة التربية . وقد أرجع أغلب النقائص التي كشفها عند المصريين إلى سوء التربية ووجد أن التربية كفيّلة بأن تغير من المصريين وتتقدم بهم . وجد أن معنى التربية هو « التحول » الذي دعا إليه حين اعتنق فكرة التقدم . ولا ريب أنه كان على حق فيما ذهب إليه ، فالكثير من مفكرى هذا الجيل على أن خلق

أمة من الأمم يمكن تعديله بالتربية ، وأن في كل أمة عيوباً أو نقائص أو صعباً تخلقها لها طبيعتها الجغرافية ، أو عوامل الوراثة ، أو وجوه الحياة الاقتصادية فيها ، لكنها تستطيع أن تصلح من شأنها إذا هي تذرعت بالتربية فَبَنَتْ لنفسها ما لم تجد عليها الطبيعة به وعدلت من حياتها الاقتصادية بما يضمن لها اليسر والرخاء .

ثم هو حديث في تفكيره حيناً وجد أن التربية لا تكون إلا بالعائلة . فالوالدان - والأم بنوع خاص - هما الموكلان بتربية الطفل . والتربية الحقّة يجب أن تبدأ بالطفل من المهد . نقول إن هذا رأى حديث لأن الطفل أصبح عند المربين الحديثين هو مركز الاهتمام . والمربون اليوم على أنه ينبغي أن نعنى بأخلاق الطفل من سنته الأولى . يجب أن يهيأ له جو ملائم يُعوّد فيه العادات التي يبتغيها المجتمع فينشأ على الفضائل . وهذا هو الذي دعا إليه قاسم أمين حين كشف علاقة الأم بتربية الطفل وهو في المهد ، وحينما دعا الى بناء الأسرة المصرية حتى يبنى جيل جديد من المصريين ، وحينما خرج على الناس بتحرير المرأة حتى يُبنى هذه الأسرة المصرية المنشودة .

والتربية عنده لا تقف عند مجرد التعليم ، بل هو يريد أن يكون لتربية العواطف المكان الأسمى . إنه يفرق بين التربية والتعليم وهو لا يؤمن بما تُحشى به أذهان التلاميذ من ألوان المعرفة ؛ بل هو يهتم للعواطف التي تنشأ

فى نفوس الأطفال . والعواطف التى يريد تنشئها تتصل بالدين والوطنية والإيثار وتفضيل الصالح العام على الصالح الشخصى . فهو يرى أن المصريين قد حرموا هذه العواطف النبيلة لأنهم لم يعودوها منذ الصغر ، فإذا اتخذت التربية وسائل تغرس بها المبدأ الدينى والإحساس الوطنى والغيرة أو الإيثار كان ذلك نجاحاً للجيل المصرى القادم . لو أنهم سمعوا ما قاله قاسم أمين !

والمقالة الرابعة عشرة من « أسباب ونتائج » جديرة بالدراسة لأنها تتصل بالإصلاح الأول الذى يذكر لقاسم أمين وهو إصلاح المرأة . فقد كان يرى أن الأم تؤثر فى نفس الطفل أكثر من أى إنسان آخر . فإن لم يكن لهذه الأم قسط من العلم شب أبناءها وهم يدورون فى حلقة من الجهل الغاشم . وهذا ما كان يحدث فى البيئة المصرية . فلم يكن أبناء المدارس يلقون فى البيت مرشداً ولا معيناً . فإذا شب الطفل عن الطوق وجدوة سحيقة تفصل بينه وبين أمه . وعاش الأمهات فى عالم من الأوهام والخرافات وعاش الأبناء فى عالم آخر تشوبه الأوهام والخرافات .

والمقالات الخمس الأخيرة تدور حول الوظيفة . وهى فى هذه المرة تحت عنوان « حكم ومواعظ » وتتصل بطبقة خاصة من أولياء الأمور أو الحكام أو الموظفين — سمّهم ماشئت . وقد عالج قاسم أمين مشكلة الوظيفة من جهة الخلق ، وذهب إلى أن الأنانية هى التى تميز الموظف المصرى . وعنده أن

هذا الموظف لم يكن يحس بالتبعة ولا بالأمانة ؛ لأنه غارق في نفسه لا يرى في حياته إلا أن يعمل لترقية شخص واحد هو نفسه . وقد فشت المنافع الشخصية بين الموظفين حتى أصبح الصالح الشخصي هو الأمل ، أما صالح الوظيفة فهو رهين بالرغائب والهوى .

والموظف الكبير عند قاسم أمين كان رجلاً دسائساً يمثل فصلاً متقنة ذات مناظر عجيبة . وهو كان يتقلب بين الخديو وبين ممثل إنجلترا وبين الوزراء . هو إنجليزى مع الإنجليز ، وفرنسى مع الفرنسيين . وكذلك يدور في حلقة يستطيع فيها أن يرضى الجميع ليرضى نفسه .

تلك خلاصة وجيزة للعناصر الثلاثة التى سرت فى مقالات قاسم أمين . إذا قوّمناها بمعاييرنا — بعد خمسين سنة — وجدت أننا لا نزال فى حاجة إلى ترديد بعضها . على أن فكرة التربية تسرى فى كل واحدة من تلك المقالات وهى الفكرة التى كبرت ثم كبرت حتى طغت على كل فكرة عداها . وحينما فكر فى التربية فكر فى الأسرة ، وحينما فكر فى الأسرة فكر فى المرأة . ولذلك آلى على نفسه أن يكتب عن المرأة ، واتسم اسمه بعد ذلك بإصلاحها .

ولكن لم فكر قاسم أمين فى إصلاح المرأة ؟ أترانا نرضى بأن نقف عند هذا الحد ؟ أم نرى أنه قد تأثر بحياة النساء فى أوروبا ووازن بين حالهن

وبين حال النساء في مصر ؟ في الحق إن كل ذلك هو الذي أنتج قاسم أمين محرر المرأة .

لقد نشأ قاسم أمين في بيئة كانت النساء فيها مهضومات الحقوق وكانت مشاهد الظلم والعسف تقع بين ناظره : حقاً كان قد ألغى الرقيق وأعتق الإماء ، ولكن آثار الرق كانت لا تزال باقية ؛ ثم كان الزواج غير المسئول سهلاً وكان الطلاق سهلاً ، وكانت هناك الضرائر وما يأتيه من ضروب العنف والصخب ؛ وكان هناك أيضاً جهل المرأة وإيمانها بالأباطيل والخرافات .

إذا نحن تتبعنا آثار هذه المشاهد في نفس قاسم أمين وجدناها منتشرة في كتبه هنا وهناك ، ووجدنا أنه قد سخط على هذه المشاهد . فهو يذكر الأسر التي أضر بها الطلاق وتعدد الزوجات ، وهو يذكر النساء اللواتي لم يكن يُسمح لهن بتناول الطعام مع أزواجهن على مائدة واحدة ، وهو يذكر جهل الأمهات وما يكنّ يعودن أبناءهن عليه من التخنث والخلق السقيم . ثم هو يذكر أن نصف هذه الأمة - وهن النساء - كان غير عامل تكاد تقتله البطالة .

تلك هي المشاهد التي تقلب فيها قاسم أمين ، وهي بقايا لما كان يصفه رجل مثل إدوارد ولیم لین في أول القرن التاسع عشر . درس إدوارد ولیم لین حياة المصريين في الثلث الأول من القرن التاسع عشر وصور لنا صورة المرأة

المصرية بما لا يختلف كثيراً عما صورته قاسم أمين في ثلثه الأخير . بل لقد أتى اللورد كرومر نفسه بصورة مثل هذه في كتابه « مصر الحديثة » . وكان لا بد أن يشعر المصريون بالخطأ المرأة المصرية ، وكان لا بد أن يقوم مدافعون عنها يفصلون حقوقها في الإسلام .

ولم يكن قاسم أمين أول من لفت نظر المصريين إلى تعليم المرأة ، فقد بدأ بتعليمها في أيام محمد علي نفسه حينما احتاجت صناعة الطب إلى قابلات . ثم فتحت المدرسة السنية في سنة ١٨٧٣ ؛ ولم يكن قاسم أمين أول من بحث في أمر تعدد الزوجات والطلاق ؛ بل لقد كانت هناك سلسلة من المفكرين المصريين أتى بعضهم في إثر بعض ؛ وقد تنبه هؤلاء إلى ما كانت فيه المرأة المصرية من جهل فدعوا إلى تربيتها ، وطالبوا بحقوقها المهضوم . وكان من هؤلاء على مبارك باشا ، وكان منهم رفاعة رافع الطهطاوى ، وكان منهم الشيخ محمد عبده . ولولا آثار هؤلاء المفكرين لما تهيماً لقاسم أمين بكل تلك الحجج التي ساقها في كتابيه « تحرير المرأة » و « المرأة الجديدة » : لكن قاسم أمين كان أول من دعا إلى كل هذه الإصلاحات بحماسة ، وكان أول من أصر على دعوته ، وكان أول من توفر على دراسة هذا الأمر توفرّاً يكاد يكون تامّاً .

كان انحطاط المرأة مما يُعَيِّر به المصريون والمسلمون ؛ وكانت في أوروبا حركة نسائية جاءت على أثر الحركات الحرة التي قامت في أمريكا وإنجلترا

وفرنسا . وكسبت المرأة الأوروبية والأمريكية بعض الحقوق السياسية
وتهيات لتكسب حقوقاً أخرى . وكان لا بد أن تتأثر مصر بهذه الحركات
الحررة التي تتصل بالنساء حتى قبل أن يولد قاسم أمين . فتاريخ مصر في القرن
التاسع عشر كان يرتبط أشد الارتباط بممالك الغرب ، وثقافتها وعلمها وأدبها
وقانونها وفنها ، كل هذه قد أحييت حينما اختلط المصريون بأهل الغرب ،
وحينما ورد المصريون مناهل الغرب . وقد شهد المفكرون المصريون
كيف تقدمت المرأة الأوروبية ، وكيف أثرت في تقدم الحضارة ، وزار بعض
المفكرين المصريين فرنسا وإنجلترا ، فدعوا إلى تحرير المرأة في مصر .
ثم إنه قد تفتحت أعينهم على نوع من الاتهامات كابلها أهل الغرب
للمصريين والمسلمين ، فكان عليهم أن يبحثوا في أمر النساء من حيث الدين .
لذلك كتب على مبارك باشا عن الزواج ونصح بالاعتصار على زوجة واحدة
وذهب إلى تحديد الطلاق ، وكتب رفاعة رافع الطهطاوى فحذ فتح المدرسة
السنية ، وكتب الإمام في سنة ١٨٨١ عن « حاجة الإنسان إلى الزواج »
وعن « حكم الشريعة في تعدد الزوجات » . كل هذه كانت نظرات جديدة
في التفكير المصرى وكانت أبواباً جديدة للفقهاء الدينى . والحجج التي ساقها
فقهاء وعلماء مثل هؤلاء ، هي التي أنبت قاسم أمين المصلح الاجتماعى .
كتب على مبارك باشا كتاباً اسمه « طريق الهجاء والتمرير على القراءة

في اللغة العربية » وضمنه هذه النظرات الجديدة . وكان هذا الكتاب مقررًا
على السنة الثانية من التعليم الابتدائي سنة ١٨٧٠ وما بعدها . وفي هذا
الكتاب على صفحه ذكر لضرورة تعليم المرأة ، وحكمة الزواج ، وذكر لكل
ما يتعلق من تعدد الزوجات وغير ذلك . وكان قاسم أمين في سنة ١٨٧٠ وما
بعدها تلميذاً صغيراً في مدرسة بالاسكندرية . أليس من المحتمل أن يكون قد
قرأ هذا الكتاب وهو يافع يتأثر ؟ لا شك إن مثل هذه الآراء كانت هي البذرة
التي أئبعت وترعرعت وأنتجت دعوته لتحرير المرأة .

تحرير المرأة

نحن مقبلون في هذا الفصل على أول كتاب كُتِب بالعربية من أجل تحرير المرأة . ونرجو أن نكون قد حللنا لك فيما أسلفنا مصادر العقيدة التي تكونت عند قاسم أمين من حيث دفاعه عن حقوق النساء . فقد أسلفنا عليك كيف كان وطنياً من نوع خاص وكيف كان يدافع عن مصر والمصريين أمام كُتّاب الغرب ، ثم أسلفنا عليك أيضاً نشأته كمفكر ومبلغ إيمانه في نظرية التقدم ، وبسطنا لك مصادر ثقافته . فقد درس أصول الإسلام الأولى كما أشرب أحسن ما كان في الثقافة الفرنسية في عصره ودرس الأصول الأولى للحضارة الصناعية الناشئة . وليس تحرير المرأة إلا نتيجة لكل تلك العوامل والحركات التي تحدثنا عنها : سواء في ذلك العوامل الشخصية التي نشأت قاسم أمين أم العوامل العامة التي كانت وراء الحركات الاجتماعية في أوروبا ومصر .

ولم يكن « تحرير المرأة » ابن الساعة التي كُتِبَ فيها لأن قاسم أمين كان قد فكر في المرأة تفكيراً عميقاً منذ أن ردَّ على الدوق داركور في سنة ١٨٩٤ . وقد كتب كما رأيت مقالات في الجرائد السيارة عن التربية كان قوامها تعليم المرأة . وقد ظل بعد ذلك أربع سنوات يدرس مركز المرأة في الشريعة الإسلامية حتى يرى أكان حقاً ما جاء به الدوق داركور ؛ ثم إنه أخذ يلحظ حالة النساء في أيامه . ثم كانت النتيجة بعد ذلك أنه كتب « تحرير المرأة » في سنة ١٨٩٨ . وهو يقول في مقدمة كتابه : « هذه الحقيقة التي أنشرها اليوم شغلت فكري مدة طويلة ، كنت في خلالها أقلبها وأمتحنها وأحللها ، حتى إذا تجردت عن كل ما كان يختلط بها من الخطأ استولت على مكان عظيم من موضع الفكر مني ، وزاحمت غيرها ، وتغلبت عليه ، وصارت تشغلي بورودها ، وتنهني إلى مزاياها وتذكّرني بالحاجة إليها ، فرأيت أن لامناص من إبرازها من مكان الفكر إلى فضاء الدعوة والذكر » .

وبذلك أصبح قاسم أمين المدافع عن حقوق المرأة في مصر والداعى إلى إصلاح حالها وتجلى في دعوته بعد ذلك ما كان يمتاز به من الإيمان المسكين والإحساس الشريف . وكان يعلم أن كثيراً من معاصريه سوف يضيّقون به ضيقاً شديداً ، وسوف يزورّون عنه ازواراً يعرضه لسخطهم . لكنه على الرغم من كل ذلك أرسل دعوته مؤمناً بها إيمان المصلحين والأنبياء والمجاهدين .

وهو يمهّد للحديث عن المرأة بأن يتأثر العلاقة بين الحكومة وبين حالة النساء . فالحكومة المستبدة تقضى على كرامة الرجل وتجعل الحق للقوة الغشوم . وإذا كانت القوة شعارا لجماعة من الجماعات آمن أفرادها باحترام القوة في كل مظهر من المظاهر وخافوا من أصحاب القوة في كل ناحية من النواحي . والمرأة بعد ذلك مستضعفة . وما دام الحق قد أصبح للقوة فقد أصبح الرجل يستبد بالمرأة . وعند قاسم أمين أن هذا هو السبب الذى نزل بمركز المرأة فى البيئات الشرقية إلى منزل وضع . فالاستبداد بالرجل يُنتج دائما الاستبداد بالمرأة . لذلك عاشت المرأة فى هذه البيئات خاضعة للرجل خضوعا أعمى ، وأنكرت عليها حقوقها سواء أكانت زوجة أم أما أم بنته « ولم يبق لها من الكون إلا ما استتر من زوايا المنازل ، واختصت بالجهل والتعجب بأستار الظلمات واستعملها الرجل متاعا للذة . يلهو بها متى أراد ويقذف بها فى الطرق متى شاء . له الحرية ولها الرق . له العلم ولها الجهل . له العقل ولها البُلهُ . له الضياء والفضاء ولها الظلمة والسجن . له الأمر والنهى ولها الطاعة والصبر . له كل شئ فى الوجود ، وهى بعض ذلك الكل الذى استولى عليه » .

ثم يعدّد المظاهر التى تُحتقر فيها المرأة . فهى محتقرة حين يملأ الرجل

بيته بالجوارى بين بيض وسود ، وهى محتقرة حين يطلقها الرجل بغير سبب ، وهى محتقرة حين يأكل الرجل وحده وحين يخلف بقايا الطعام لأخته وزوجه وأمه ، وهى محتقرة حين يعين لها محافظا على عرضها يراقبها ويصحبها أنى ذهبت ، وهى محتقرة حين يسجنها فى المنزل وحين يعلن أن زوجه ليست أهلا للثقة والأمان ، ثم هى محتقرة حين يحال بينها وبين الحياة العامة « فليس لها رأى فى الأعمال ، ولا فكر فى المشارب ، ولا ذوق فى الفنون ، ولا قدم فى المنافع العامة ، ولا مقام فى الاعتقادات الدينية ، وليس لها فضيلة وطنية ولا شعور ملّى » .

لذلك دعا قاسم أمين إلى الرفع من شأن المرأة حتى تزول كل هذه السيئات ، وقد رأى أنه لا مناص من تربية المرأة فعليها أن تبلغ قدراً من العلوم يسمح لها باختيار ما يوافق ذوقها من العلم والاشتغال به إذا شاءت . ولا بد لها من أن تدرس بعض الحقائق العلمية ومواقع البلاد وعلم الهيئة والعلوم الطبيعية حتى تطرح الخرافات التى يولدها الجهل : هذه التربية نفسها ضرورية للمرأة لأنها ذات أثر فعال فى حياتها . ولأنها تعينها على وظيفتها فى الهيئة الاجتماعية وفى الأسرة .

وقد بسط قاسم أمين وظيفة المرأة الاجتماعية فقال : إنه قد تعيش نساء

فقدن عائلهن فماذا عسى هؤلاء أن يفعلن ؟ أليس الأجدى علينا أن نعلم الفتاة حتى لا تقع في العوز وحتى تجد وسائل لطلب الرزق إذا تلفت فلم تجد من يعولها . العلم لمثل الفتاة التي تفقد أخاها أو أباه ، ولمثل المرأة التي تفقد ابنها أو زوجها ، سلاح يقيها مذلة المسألة ويرتفع بها عن مهاوى الرذيلة والدنس . أما فتاة أو امرأة من غير علم فهي لا تستطيع أن تبلغ حاجتها من أسباب العيش إلا إذا لجأت إلى الاستجداء أو بيع شرفها ببيع سماح .

فإذا كان هناك امرأة ذات مال فإن العلم أنفع لها وأجدى . ذلك لأن العلم يفيدها في تدبير ثروتها وإدارة شئونها : وكم من نساء تركزن شئونهن لمن خان الأمانة من الأقرباء والوسطاء لأنهن غير متعاملات .

على أن العلم في نفسه سبب من أسباب السعادة سواء أكان المتعلم ذكرا أم أنثى . وفي كل نفس شوق يدفع الإنسان إلى مطالعة الحقائق وممارسة الفنون ، وليس بين الرجل والمرأة فرق في هذا الشوق . فالصغار من الذكور والإناث يستوون في الاستفهام عن كل شيء يعرض لهم ، وطلب العلم بأسباب ما يقع تحت أبصارهم من الحوادث « وربما كان الوله بذلك في الأنثى أشد منه في الذكر » .

وحينما يخلص قاسم أمين من بسط القضية فيما يتصل بمركز المرأة الاجتماعي

ينثنى إلى وظيفتها فى العائلة ويثبت هنالك أن تربية المرأة لازمة لها كزوجة وأم . وهو يحس بأن العلاقة الزوجية تقوم قبل كل شىء على نوعين من الانجذاب : أحدهما الانجذاب المادى ، وثانيهما الانجذاب الروحى . وهذه العلاقة يجب أن تكون روحية كما تكون جسمية . فإذا وهنت العلاقة الجسمية بقيت هذه العلاقة الروحية بين الرجل وزوجه ، وذلك هو الذى يعبرون عنه بالحب أحياناً وبالصدقة أو الصحبة فى أحيان أخرى .

هذه الصداقة التى عاش قاسم أمين من أجلها والتى رأيناها بينه وبين قادة الفكر فى عصره : هذه الصداقة التى تكون بين الرجل والرجل : صداقة الإحساس والفهم والحديث هى التى أراد أن ينشئها بين الرجل وزوجه . وينبغى عنده ألا تكون المرأة فى العائلة إلا صديقة أو صاحبة أو قرينة . لزوجها . مثل هذه الصداقة متجددة لا يضيق بها الرجل ولا المرأة . وهى ما يسميه الناس خباً روحانياً . أما تلك اللذة الحيوانية التى يقضيها الإنسان فلا تلبث أن تزول ، إنها شىء يتبدد ولا يتجدد ؛ فهى حقيقة بأن يضيق بها الرجل والمرأة كلاهما . الصداقة أو قل الحب أو قل التفاهم أساس الزواج . وزواج فيه صداقة مفقودة شر أنواع الزواج .

ولا بد لهذه الصداقة أن يكون بين الرجل والمرأة تكافؤ فى الشعور والتفكير . يجب أن يكون بينهما توافق فى كثير من ألوان الشعور وتبادل

في اللذة والألم وتشارك في الوجدان والرأى . فإذا كان الزوجان من مستوى فكري أو وجداني واحد أحسّا سعادة نسبية ، وتبادلاً شعوراً واحداً ، واتفقا على ما يسوّى بينهما من الألم أو الأمل . وهذا يفسر لنا هذه السعادة التي يشعر بها العامة حين يسكنون إلى نسائهم . فالعامل الفلاح والعاملة الفلاحة يستويان في مبلغ الفكر والشعور وهما لذلك متفاهمان . أما المرأة في الطبقات العليا عند قاسم أمين فقد انحطت عن الرجل ، فأصبحت لا تحس إحساسه ، ولا تردّ موارده ، ولا تستطيع أن تفسّر ما يأخذ وما يدع . تكره الكتب وتضيق بالعلم ، وتقضى أوقات الفراغ - وكل أوقاتها أوقات فراغ - تخلق المنازعات لتقضى على بقية السعادة التي قد يحس بها زوجها .

وبعد أن يثبت قاسم أمين أن تربية المرأة لازمة لها بوصف أنها زوج ينشئ إلى الأمومة فيثبت أن تربية المرأة لازمة أيضاً بوصف أنها أم . وقد علمت فيما مرّ بك كيف لمس قاسم أمين موطن الداء عندنا حينما تحدث عن التربية . لقد كان يرى أن التربية أساس كل إصلاح آخر ، وأن التربية الصحيحة كفيلة بأن تعالج كل تلك السيئات التي عدّها . ثم لقد كان يرى أن عبء التربية يقع على كاهل المرأة قبل أن يقع على كاهل الرجل . فلا سبيل إلى تربية أمة حتى تصلح نساؤها ، ولا سبيل إلى إصلاح النساء إلا بتربيتهن .

وعنده أن التربية لا تقف عند إحسان القراءة والكتابة لأن هذه

وسيلة من وسائل التعليم فحسب ، إنما التربية الصحيحة هي التي تنشئ في المرأة عقلاً عملياً يصل السبب بالنتيجة والعلة بالمعلول . فإذا كسبت المرأة هذا العقل العملي حلَّ عندها محل الخيال الغامض ، وأصبح عندها جملة من المعارف والحقائق لا تَمُتُّ بسبب إلى الخيال السخيف . وكلما تجردت المرأة من الأوهام والخيالات قربت من السعادة . فإذا نشأت المرأة وعندها ذلك العقل العملي تخلت عن العادات المردولة والخرافات التي تقيد المجتمع وأنشأت بنيتها على أن يروا كل شيء في وضعه الصحيح .

لكن الكثير يرى أن المرأة ناقصة العقل وأن التعليم للمرأة قد يكون سلاحاً للرديلة كما يكون سلاحاً للفضيلة . بل يرى كثير من الكتاب الأقدمين أن التعليم قد يفسد أخلاقها . وقاسم أمين ينكر ذلك أشد الإنكار ويرى أنه إذا حدث أن بعض النساء قد فسد أمرهن لأنهن تعلمن فليس هذا دليلاً على أن التعليم مُفسد للنساء جميعاً . والحقيقة أن طهارة القلب في الغرائز والطباع . فإن كانت المرأة صالحة زادها علمها صلاحاً وتقوى ، وإن كانت فاجرة لم يزد عليها فجوراً . وهكذا الحال في الرجال ، وضلال فريق من الناس بضرب من ضروب التعليم لا يمنع من تعاطيه . فقد قال الله في شأن كتابه « يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا . وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ » ثم إن الأمر في تربية المرأة كان أخطر من ذلك بكثير . لقد كان الأمر

أمر حياة أمة أو موتها . كان يعلم قاسم أمين أى قوة كانت تتر بص بالشرق الدوائر . وكان يعلم أن فى الغرب قوماً أنتجوا حضارة سامقة : قوماً من المخترعين والكاشفين والمغامرين . وكان يعلم فوق ذلك أن أهل الغرب يذهبون إلى المعجور والمعجور من أصقاع الأرض يكشفون عن السكنوز التى عجز أصحابها عن استغلالها . أنت لا زلت تذكر فكرة قاسم أمين عن جشع أهل الغرب فى أهل الشرق ، ولا زلت تذكر الشعور الوطنى الذى شاع فى صدور المصريين فى أخريات القرن التاسع عشر . وقاسم أمين يرى أن كل محاولة لمقاومة هذا المذهب يجب أن تتمثل فى التربية : فى التحول أو التغير أو التمدن .

لم يكن أمام المصريين سبيل لمقاومة المغامرين إلا إذا تذرعوا بالتربية ، وليس من سبيل إلى تربية الأمة حتى تُربى المرأة كما يُربى الرجل : تُربى المرأة تربية جسمية وخلقية وعقلية مثل ذلك الذى نقرأه عن تربية المرأة الإنجليزية فى « سر تقدم الإنجليز السكسونيين » . وكأنما كانت تربية المرأة عنده واجبا وطنيا لأنه رأى أن تربيتها تستدعى خلق جيل جديد من المصريين يحاول أن ينهض كما نهض الرجال والنساء فى أوروبا وكذلك استطاع أن يعبر عن شعوره الوطنى وهو يتحدث عن ضرورة تربية النساء .

وإذن فقد رأيت أن قاسم أمين قد ساق حججا رصينة حين أراد أن

يُثبت حق المرأة في التربية . لقد عالج مركز المرأة كزوج وتأثر العلاقة بينها وبين زوجها . وعالج مركزها كأم ، وقدّر فضلها في تربية الأولاد تقديرا عظيما ؛ ثم عالج مركزها من الأمة فرأى أنها هي التي تحمل أثقل الأعباء في خلق الجيل الناشئ : ثلاث حجج ساقها الواحدة تلو الأخرى ليبرهن بها على حق المرأة في التربية . وهي حجج قالها بعض المصريين خلال القرن التاسع عشر لكن أحدا منهم لم يجمعها في صعيد واحد كما جمعها قاسم أمين ، ولم يعرضها عرضا منطقيا منسقا كما عرضها قاسم أمين . وحسبنا أن نقول إن البذور الأولى كانت قد بذرت في منتصف القرن التاسع عشر لكنها أينعت على يدى قاسم أمين في السنين الأخيرة من هذا القرن .

ويعرض قاسم أمين لثلاث مسائل شائكة هي الحجاب أولا وتعدد الزوجات ثانيا والطلاق ثالثا . ويبدى في كل واحدة من هؤلاء رأيا حديثا يذهب فيه إلى الاجتهاد في الشريعة ويبدو فيه كما بدا المصلح الهندي الكبير سيد أمير على حين جدّد رأى المعتزلة في هذه المسائل الثلاث .

أما الحجاب فإن قاسم أمين يردّه إلى الحجاب الشرعى وعنده أن الحجاب الشرعى يقتضى ستر جسم المرأة ما عدا الوجه والكفين والقدمين . وهو يقتبس دليلا على ذلك كلاما لابن عابدين وكلاما آخر من كتاب

« الروض في المذهب الشافعي » ويروى حديثا عن النبي روته عائشة إذ قالت
« إن أسماء بنت أبي بكر دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليها
ثياب رقاق . فقال لها يا أسماء ، إن المرأة إذا بلغت الحيض لم يصالح أن يَرى
منها إلا هذا وهذا » وأشار إلى وجهه وكفيه . وإنما رُخص لها هذا القدر
لأنها لا تجد بُدًّا من مزاولة الأشياء بيديها ومن الحاجة إلى كشف وجهها في
الشهادة والحكمة والزواج ، وغاية ماورد في كتب الفقه بعد ذلك ألا يخلو رجل
بامرأة إلا مع ذي محرم . وعند ابن عابدين « أن الخلوة بالأجنبية حرام إلا
للملازمة مديونة هربت ودخلت خربة أو كانت عجوزا شوهاة أو بحائل » .
ثم إنه ناقش الحجاب من وجهه الاجتماعي ، وعدّد ما جرّه الحجاب على
الأمّة المصرية من التأخر . وقد كانت الفتاة المصرية تتحجب من سن الثانية
عشرة فهي لا ترى رجلا ولا يراها رجل ، وهي تجد نفسها في دنيا من النساء
لا شأن للرجال بها . وعند ذلك تقف معلوماتها عند حد ويقف تفكيرها عند
الخرافة والوهم ، ولا تعلم من العالم الخارجى إلا أنها رهينة الأعباس .
أما ملكاتها وهباتها فقد وُدت ، وأما شوقها لكسب العلم فقد دُفن بين
الجدران . وكانت الحياة الداخلية التي تعيشها بين النساء والخدم كفيّلة أن
تميت فيها كل أفكارها التي نشأت معها في أيام الطفولة . حتى صحتها نفسها
كانت تذوى ، لأنها حرمت الشمس والهواء ، ولأنها كانت تظل قعيدة البيت

لا تزاوله ولا تبرحه . لذلك عاش المصريات عليّات الجسم والروح وظهرت عليهن علامّ الشيخوخة وهنّ في ريعان الشباب .

ثم هو يناقش أثر الحجاب في احتفاظ المرأة بعفتها . وهو يقول في ذلك إن أمر العفة رهين بعوامل أخرى عديدة ربما كان الحجاب واحدا منها فقط . واختلاط الرجل بالمرأة اختلاطا شريفا يولّد نوعا من الألفة لا يكون للشهوة أثر فيه . لذلك كانت المرأة في أمريكا أشدهن عفة ، ولذلك كانت المرأة في القرية المصرية وفي البادية أقوى مراسا من المرأة في المدينة المصرية . ثم إنه لا غناء في عفة تشتري بالأفقال والأحباس ؛ فالعفة دائما شيء خارج من النفس لا شيئا مفروضا على النفس . أما العامل الأساسى الذى ينتج العفة فإنما هو التربية . فإذا ساءت تربية فتاة كانت العفة وهما أو لغوا وكانت نفسية المرأة أبعد ما تكون عن الصلاح والرشاد .

وهنا نلتقى بقاسم أمين المربى مرة أخرى لأنه يبسط القول في تربية النساء بسطا يصف لنا فيه كيف ينبغى أن تتعلم المرأة تعلمًا يكسبها استقلالًا خاصا في التفكير والإرادة ، وكيف ينبغى أن تكون فردا له حواس وشعور ووجدان ؛ وهو يقيم لنا ذلك المثل الأعلى للتربية الذى تحدّث عنه عندما تكلم عن تربية الرجل . ثم إنه لا يرى أن تربية المرأة تقف عند حد الكتب بل هى تكسب لممارستها شؤون الحياة . والحجاب الشرعى نفسه الذى وصفه

فما أسلفنا لا يحول دون الحياة الحرة التي يمكن أن تعيشها المرأة المصرية إذا تخلصت من القيود التي أقحمت في الدين إقحاما .

تلك خلاصة لما رآه قاسم أمين عن الحجاب وهي على قصرها تجميل لك الزبدة من آرائه . ولعلنا نرجع إلى وراء كرة أخرى : إلى سنة ١٨٩٤ فترى النقاش بينه وبين الدوق داركور في ضوء هذا الكلام . في سنة ١٨٩٤ كان يدافع عن تحجب النساء وكان ينتقد حياة التهلكة والفجور . لكنه في سنة ١٨٩٨ رأى غير ذلك الرأي . ومعنى ذلك أنه كان قد اقتنع بأكثر الكلام الذي كتبه الدوق داركور في كتابه عن حياة الأسرة المصرية . ومعنى ذلك أن هذه السنوات الأربع التي امتدت به قد أقنعت به أن وراء ما أتى به الدوق الفرنسي ظلا من الحق .

على أنه لم يكن مسرفا في الدعوة إلى اختلاط الرجل بالمرأة كما يصوره الكثيرون من أنصاره وخصومه . بل لقد كان معتدلا في دعوته كل الاعتدال . لقد كان يرى أن الحجاب يجب أن يُردَّ إلى ما جاء به الشرع الشريف . فوقفه من اختلاط الرجل بالمرأة كموقف الكثير من المسيحيين في إنجلترا وأمريكا وألمانيا . وبين هؤلاء فئات كثيرة تحرم الرقص ، وتحتم أصول الحشمة في اللبس والمظهر . وتحرم الظهور على شواطئ البحر بملابس

رقيقة . موقف قاسم أمين من مظاهر التهتك هذه هو موقف هؤلاء المسيحيين ، بل هو موقف رجل مسلم أراد أن يرى المرأة المصرية كما كانت نساء المسلمين الأولين ، وهو بعد ذلك موقف سليم لأن للحشمة أصولا أخرى غير الاحتجاب بالمنزل من المهد إلى اللحد .

ينبغي أن نذكر دائما أن قاسم أمين كان ساخطا على مظاهر الفجور والتهتك وأنه في كتابه « المصريين » كتب عن المرأة الأوروبية المتهتكة ما يدل على هذا السخط . وهو لا يدعوفى « تحرير المرأة » إلى تقليد النساء الإباريسيات ، وهو لا يرضى أن تنقلب الصور الإباريسية فتصبح قاهرية . فإذا كانت مثل هذه الصور تروح وتعدو أمامنا في مصر الآن فليست هى إلا نتائج لهذا التقليد الأعمى الذى ساق نساء أوجالا من المصريين فى طريق شائك حسبوه طريق التقدم .

ثم إنه لم يكن فى وسائله ميل إلى الطفرة . تتحدث السيدة حرمه فتقول « لم يكن قاسم أمين فى دعوته يؤمن بالطفرة وإنما كان يرجو تحقيقها تدريجيا ، ولذلك فإنه لم يرغنى على السفور عندما كان ينادى إليه ؛ وبالرغم من أننى لم أكن أعارضه فى دعوته بل كنت على الدوام مطيعة له راضية عن آرائه إلا أننى كنت أرتدى البرقع والحبرة شأنى شأن سيدات ذلك العصر . ذلك لأن قاسم بك كان يرى أن الطريق لم يمهّد بعد لتنفيذ فكرته فكان يكتفى

بالمناداة بها . ولكنه لم يطبقها في أسرته إلا على النشاء الجديد ، أعنى على بناته » .

حينما دعا قاسم أمين إلى السفور أخطأ كثير من الناس فهمه وبلغ الغباء وسوء الأدب بشاب منهم أن ذهب إلى داره يوما وطلب مقابلته . فلما قيل له إنه غير موجود طلب مقابلة حرم قاسم أمين ! فلما قيل له إن حرم قاسم أمين لا تقابل أحدا احتج وقال إن قاسم أمين يدعو إلى السفور وإنه يريد تنفيذ هذه الدعوة بمقابلة حرم قاسم أمين ومجالستها !

وهذه العقلية تمثل لنا الرجال الذين اتخذوا دعوة قاسم أمين ذريعة فأسرفوا في الاختلاط وانظر إلى ما تقوله السيدة حرم قاسم أمين بك في حديث لها :

« إن بنات الجيل الحالى وشبابه قد أخطأوا فهم هذه الدعوة وتجاوزوا مداها . فالمظهر الذى تظهر به فتيات هذا العصر ليس سفورا بل هو بهرجة فظيعة لم يكن يخطر على بال قاسم أن ينادى بها أو يدعو إليها » .

« وإنما كان قاسم ينادى بالسفور الشرعى الذى لا يزيد عن إظهار الوجه واليدين والقدمين ولا يتجاوز إلى إظهار العورات وإلى اختلاط المرأة بالرجل بالشكل الحاصل الآن » .

« وإنى أعتقد أن قاسم بك لو كان حيا لما رضى عن هذه الحال ، بل لا نبرى إلى محاربتها » .

« ويحزنى أن أرى الكثيرين يسيئون إلى قاسم أمين إذ يحملونه المسؤولية عن هذا التهمك وينسبونه إلى دعوته ، فيدللون بذلك على أنهم يسيئون فهم هذه الدعوة » .

وكل كلمة من هذه الكلمات صحيحة لو لم تقلها السيدة حرمة لاستنتجناها من كتابات قاسم أمين .

ذلك إذن رأى قاسم أمين في الحجاب والسفور . أما رأيه في تعدد الزوجات والطلاق فقد بينه عندما تحدث عن تكوين الأسرة . وقد أسلفنا وحدثنك عن فكرته عن الصداقة التي يجب أن تقوم بين الزوج وزوجه . وهذه الصداقة أو قل ذلك الحب أو قل ذلك التوافق هو الذى حاول أن يدعو إليه قاسم أمين فى بناء الأسرة المصرية . كان يعلم أن الأسرات ما هى إلا لبنات فى بناء الأمة ، وأن كل أسرة يجب أن تكون وحدة يشيع فيها الإخاء والعطف . فإذا حال دون ذلك تعدد الزوجات أو الطلاق كان جديراً بالمسلمين أن يضعوا حداً لهذه الذرائع التي تحول دون الأسرة المصرية وما ينبغى أن تتمتع به من الألفة والسعادة .

وهو يجد فى الذكر الحكيم آيات تؤيد ما يجب أن يقوم بين الزوج وزوجه من هذا التوافق المنشود . وقد قال تعالى : « وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ

لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً .
 فنظام الأسرة قائم على هذه المودة والرحمة لا على المتاع المادى . ثم إن الشريعة
 قد قضت بالألا يُعقَد زواج حتى يتأكد كل زوج من ميل الآخر إليه . هذا
 إلى أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يعامل زوجاته خير معاملة . فقد كان
 يلاعبن ويمزحهن ، وكان يرأف بالنساء عامة ويأمر بإحسان معاملتهن ، وقد
 وردت أحاديث فى ذلك منها : « أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً والطفهم
 بأهلهم » ومنها : « خياركم خياركم لنسائكم » .

هذا إذن أصل الأسرة . وقد سوت آيات الذكر الحكيم بين حقوق
 الرجل وحقوق المرأة فى هذه الشركة لولا أنها جعلت الرجال قوامين على
 النساء . وقد جاء فى القرآن الكريم « وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ »
 أما ما أفسد على المسلمين من هذا الأصل التقي الكريم فإنما هما اثنتان أسىء
 استعمالهما وهما تعدد الزوجات والطلاق . وقد ذكرنا أن على مبارك باشا قد
 ساق حججاً عن تعدد الزوجات ، وكذلك ذكرنا أن حججاً فقهية ودينية
 قد ساقها الأستاذ الإمام . وقد جمع قاسم أمين هذه الحجج فى صعيد واحد
 وعالج هذه المسألة من وجهتيها الاجتماعية والدينية معالجة المصلح والفقير . أما
 من الوجهة الاجتماعية فهو يوازن بين أسرة متحدة جمعت أفرادها رحم
 واحدة وبين أسرة متوزعة متنافرة تشقى فيها الأمهات ويرث أبنائها بغضاء

أُمهاتهم . إنه يصف حالة الخصام التي تحياها الأسرة الأخرى ثم يصف منظر « عائلة متحدة يعيش فيها الأولاد في حضن والديهم تجمعهم محبة صادقة لا يتنافسون إلا في زيادة الحب ، ولا يتسابقون إلا إلى الخير يصل من بعضهم لبعض ، يربطهم ميثاق غليظ جعلهم كأعضاء جسم واحد ، إن فرح أحدهم فرحوا وإن بكى بكوا معه . »

أما من الوجهة الدينية فهو يردد فكرة العدل ويذهب إلى أن مبدأ التعدد في الشريعة يحتوي إباحة وحظرا في آن واحد ؛ والشارع يعلق وجوب الاكتفاء بزوجة واحدة على مجرد الخوف من عدم العدل ثم صرح بأن العدل غير مستطاع . فمن ذا الذي يمكنه أن لا يخاف من عدم العدل مع ما تقرر من أن العدل غير مستطاع ؟ وهل لا يخاف الإنسان من عدم القيام بالمحال ؟ « ولو أن ناظرا في الآيتين — آية الإباحة وآية وجوب العدل — أخذ منهما الحكم بتحريم الجمع بين الزوجات لما كان حكمه هذنا بعيدا عن معناها . »

كلام يذكّر الإنسان بما ورد في آراء الأستاذ الإمام ، وهو يذكّر الإنسان بما ذهب إليه بعض فقهاء المعتزلة من تحريم التعدد ؛ فقد قالوا إنه ينبغي ألا يكون العدل في النفقة فحسب ، ولا في الملبس ولا في المسكن ؛ بل ينبغي للعدل المطلق أن يكون في الحب والتقدير . قالوا وحيث أن العدل في توزيع

الحب والتقدير محال لأن رجلا لا يستطيع أن يحب اثنتين بقدر واحد في وقت واحد ، فإن الذى جاء به القرآن الكريم إنما هو تحريم تعدد الزوجات . نقول إن كلمات قاسم أمين تذكر الإنسان بهذا الرأى لكنه هو نفسه يعلم أن السُّنة والعمل جاء بما يقتضى إباحة التعدد على ما أحيط به من حدود ضيقة . وهو يذهب إلى أنه لا يباح للرجل اتخاذ زوجة أخرى إلا فى حالة الضرورة المطلقة — كأن أصيبت امرأته الأولى بمرض لا يسمح لها بتأدية حقوق الزوجية ، أو إذا كانت عاقرا . على أنه لا يرى حتى فى هذه الأحوال أن تبلغ مروءة الرجل حدا من الهوان بحيث يضيع حقوق امرأة لا ذنب لها . بل يرى من المروءة أن يتحمل الزوج ما تصاب به زوجته .

وقاسم أمين يناقش الطلاق بنفس هذا الأسلوب . وهو يرى أن الطلاق ضرورة من ضرورات المجتمع . فحيث يكون الزواج يكون الطلاق . لكنه لا يرى أن الأمر فى الطلاق مباح هذه الإباحة التى لحظها فى عصره ، ونلاحظها نحن فى عصرنا الحاضر .

وهو يردد ما قاله بعض المصريين من أبناء جيله من أن أبغض الحلال إلى الله الطلاق ، ومن أنه لا ينبغى أن يكون الطلاق رهينا بمشئنة الزوج بل يجب أن يتدخل فيه قاضى الشرع . وهو يناقش فكرة الطلاق ثلاثا

ويذهب بعد أن يورد كثيرا من الآيات والشروح إلى أن إرسال الثلاث طلقات دفعة واحدة لا يعنى أن الطلاق قد وقع ثلاث مرات بل يجب أن تعتبر طلقة واحدة .

إنه يرى نصوص القرآن والسنة تحت النور الذى أضفاه فقهاء مجتهدون مثل الشيخ محمد عبده . وهو يتحلل من النصوص التى أسرف فى تأويلها بعض الفقهاء من المتزمطين . ومن هؤلاء من أول الألفاظ وتقنن فى فهم معانيها ، ومن هؤلاء من رأى أن ذكر اللفظ وحده كان كفيلا بأن يتم به الأثر الشرعى . « ولهذا قصرُوا أبحاثهم جميعها على الكلمات والحروف وامتلأت الكتب بفهم « طلقتك » و « أنت طالق » و « أنت مطلقة » و « على طلاق » وطلقت رجلك أو رأسك أو عرقك وما أشبه ذلك . إنه يرتفع عن البحث فى مثل هذه المناقشات اللفظية التى انحدر إليها الفقه الإسلامى فى عصور التأخر العلمى والتزمت الدينى » .

وهو يخرج من كل الآيات التى تتعلق بالطلاق بدستور أراد أن يجعله من صلب القانون . فهو يرى أن تحال مشاكل الطلاق إلى قاضٍ شرعى وأن يرجى القاضى الزوج وزوجه أسبوعا ، وأن يرسل — إذا أصر على الطلاق — حَكَمًا من أهله وحَكَمًا من أهلها . فإذا أخفق هذان أمكن للطلاق أن ينفذ . ثم إنه لا يصح الطلاق إلا إذا وقع أمام القاضى أو المأذون ،

وبحضور شاهدين ؛ ولا يُقبل إثباته إلا بوثيقة رسمية . كان هذا الاتجاه حديثاً منذ نصف قرن وهو لا يزال جديداً في هذه الساعة التي نكتب فيها . فإذا كان القانون المصري قد أخذ برأى في مسألة الطلاق ثلاثاً دفعة واحدة أيكون طلاقاً بائناً أم لا يكون ، وإذا كان قد تواضع الفقهاء أخيراً على أنه لا يعتبر هذا طلاقاً بائناً ، وإذا كان السن الأدنى لزواج البنت قد حُدّد بالسادسة عشرة ؛ فإن الطلاق في نفسه لا يزال مشكلة من المشاكل . وقد أثبتت إحصاءات سنة ١٩٤٣ أن هناك ٢٠٠ طلاق في اليوم الواحد ، وأن ٧٢٠٠٠ طلاق قد وقعت في مدى هذه السنة ، وأن من بين المطلقات ١٠٠٠٠ تركن أزواجهن ومع كل منهن ولد ، ونحو ٣٠٠٠ مع كل منهن ولدان ، وما يقرب من ألف خرجن من بيوت أزواجهن ومع كل منهن ثلاثة أولاد أو أربعة وبينهن من ترك لها زوجها ثمانية أولاد .

ومعنى ذلك أن هذه المشكلة لا تزال قائمة ، وأن الضرر منها خبيث لأنه لا يتناول الأسرة المصرية من أساسها فحسب ، بل لأنه يتصل بمصائر الفتيان والفتيات . فإذا أنت راعك عدد أبناء السبيل الذين يتهاكسون في الطرقات وإذا أنت درست الإجرام في مصر ، فاعلم أن كثيراً من هذه الشئون ترجع إلى هذه المشكلة الخبيثة : مشكلة الطلاق .

ذلك عرض لما ذهب إليه قاسم أمين في تحرير المرأة . إذا نظرت إليه

نظرة هذا الجيل الذى نحن فيه رأيت أنه لم يكن مسرفاً فيما دعا إليه من السفور ورأيت أنه كان على حق فيما دعا إليه من توحيد الزوجة وتضييق الطلاق . أما مشكلة السفور فقد حُلّت وانطوى حلها على أن اشترك الرجل والمرأة فى مصر فى بناء وطننا القومى . وأما المشكلتان الأخريان فانهما لا زالتا باقيتين تجهاننا كلما خطونا خطوة نحو الإصلاح الاجتماعى . وإذا كان أوساط المصريين قد تأثروا بهذه الدعوة التى بدأها قاسم أمين ، فإن الطبقات الدنيا ما زالت بمنأى عن كل ذلك . فلا زال تعدد الزوجات والطلاق فاشيين بين كثير من هذه الطبقات ، ولعلّ هذا هو بيت الداء الذى نلمسه فى كياننا الاجتماعى .

المرأة الجديدة

حينما طلع على الناس « تحرير المرأة » استقبلته بيئة محافظة متمسك بالتقاليد والعادات . لذلك اهتز له الكتاب في مصر ، وذهب كل فريق منهم إلى الوجهة التي رآها فيه . فمنهم من آمن على كلام قاسم أمين ، ومنهم من دافع عن آرائه وكتب في ذلك مقالات طويلة ، وكان أكثر هؤلاء من صحبه وإخوانه الذين فهموه ؛ ومنهم من سخر منه وسفه آراءه ، وهؤلاء هم الذين اتخذوا الأمر أضحوكة يعبثون بها . ومنهم من تصدى للرد عليه بحكمة ووقار ، وهؤلاء هم الذين تحدثوا عن الحجاب والسفور حديثا علميا لكنهم لم يتفقوا وقاسما فيما ذهب إليه من ضرورة السفور ورفع الحجاب .

كان من الذين نصره سعد زغلول فقد أيده في إصلاحه الاجتماعي فأهدى إليه « المرأة الجديدة » ، ثم كان من الذين نصره أيضا فتحي زغلول ، وهو يقول في مقدمة كتابه « سر تقدم الإنجليز السكسونيين » حينما كان يتحدث عن الأثرة :

«وحب الأثرة هذا هو الذى جعل كتاب حضرة صديق الفاضل قاسم بك أمين «تحرير المرأة» الذى نشره فى الشهر الماضى لا يروق فى عيني بعض القراء لأنه يدعوهم إلى ترك عادة تأصلت فى النفوس ، وعُدَّت من الاعتقادات ، ونسبت غلطا إلى الشريعة السمحاء ، وليست منها فى شىء من الأشياء . مع أن المؤلف جمع فى كتابه من شوارد الأفكار ورفيع الأقوال ما يُعجب به كل محب الخير الأمة طالبا لنفعها ، ولكنه برهن على أن علة تأخرنا سوء حال النساء ، وتعدّى الرجال على حقوقهن . فكان ذلك النفور من كتابه لمحبيته على ما يخالف ما ألفته النفوس وارتاحت إليه » .

لكن أمثال سعد وفتحى كانوا أفرادا قلائل . وكان أغلب الذين تلقوا الكتاب يتناقلون أخباره فى بيئاتهم الخاصة فيزدادون به ضيقا ويزدادون على صاحبه سخطا ؛ بل لعله لم يقرأه الكثير بل ضاقوا به وسخطوا عليه دون أن يقرأوه . ويمثّل قاسم أمين حالة واحد من هؤلاء حين يكتب هذه المحاوره :

« سئل ح . بك — ما رأيك فى كتاب تحرير المرأة ؟

فأجاب — ردىء !! .. ،

— هل قرأته ؟

— لا !

— أما يجب أن تطلع عليه قبل الحكم برداءته .

— ما قرأت ولا أقرأ كتابا يخالف رأيي » .

وهؤلاء الذين حكموا على الكتاب من غير أن يقرأوه كانوا هم الأغلبية .
والإشاعة تؤثر في النفوس في بعض الأحيان أكثر مما تؤثر الحقيقة . وكان
حب الأثرة كما قال فتحي زغلول هو الذي حال بينهم وبين تفهم الموقف على
حقيقته . بل لقد أعماهم التحيز والهوى عن أن يقرأوا الكتاب نفسه
ويتدبروا ما فيه .

ثم كانت هناك فئة من أهل الدين وافقت على كثير مما جاء به . ومن
هؤلاء المرحوم السيد رشيد رضا حيث يقول « وأما الأمر الثالث وهو حكم
الشرع في هذه المكلة فالمعروف أن الشرع إنما حرم الخلوة بالمرأة الأجنبية .
وأخبار الصدر الأول مستفيضة بمكلمة النساء للرجال وحديثهن معهم في الملاء
دون الخلوة . وكفاك أن نساء النبي صلى الله عليه وسلم — وهن اللاتي أمرن
بالمبالغة في الحجاب — كنّ يحدثن الرجال حتى أن السيدة عائشة كانت قائدة
عسكر ومدبرة له في وقعة الجمل المعروفة . وما إخال أن مكابرا يقول إنها لم
تكن تكلم أحدا منهم إلا ذا محرم » .

وكانت هناك فئة كبيرة من أهل الدين ذهبت إلى غير ذلك ، فنذب
واحد منهم للرد على قاسم أمين . فكانت ردوده تدور حول ما توقعه قاسم

من تأويل آيات الذكر الحكيم . وذهب هذا الجمهور إلى أن هذه البدعة التي ابتدعها قاسم سوف تدك قوائم الإسلام دكا ، وتقوّض دعائم الخلق تقويضا . وكل الذي سأموا به أن المرأة يجب أن تتعلم قليلا من العلم ، وأن الحجاب لن يمنعها من ذلك ، وأنها تستطيع أن تتعلم للتكسب إذا خيف عليها من الفقر أو الفاقة . ذلك أقصى ما ذهب إليه هؤلاء ، لكن التقاليد نفسها التي درجت عليها المرأة كانت مقدسة عندهم لا سبيل إلى التحول عنها . نقول كان هذا رأى فريق كبير من أهل الدين ، كما كان رأى فريق كبير من غيرهم ممن تعلموا في مصر وأوروبا . فقد كان أولئك وهؤلاء يحرسون على العادات القديمة ولا يتصورون حرية المرأة مع العفة والقناعة والكرامة وحسن السمعة .

ولقد يطول بنا الحديث إذا حاولنا أن نتقصى كل ما كتبه الباحثون والمفكرون في نقد كتاب « تحرير المرأة » ، لأن الكتاب نفسه قد أثار فكرة في عقل كل باحث ، وقد بعث رأيا عند كل مفكر . ولكن حسبنا أن نقول إن المستنيرين من معارضى قاسم أمين قد استشهدوا بكلمات كثير من الفلاسفة الذين لم يؤمنوا بحقوق المرأة . وكان من هؤلاء پرودون وأوجست كونت وصمويل سميلىز . فاتخذت آراؤهم حججا يذفع بها خصوم قاسم أمين . وقد كتب الأستاذ الكبير فريد بك وجدى رددا عليه نشرها في المؤيد ،

وكانت جميعها تدور حول الاختلافات بين المرأة وبين الرجل ، وحول مركز المرأة ووجوب الحد من حريتها . ثم إنه تحدث عن تبرج المرأة في عصور الرومان الأخيرة ، وعن الحجاب وهل هو مانع كمال المرأة . وتشعر وأنت تقرأ كل هذه الفصول أن الأستاذ فريد بك وجدى يصور حالة مثالية للمرأة المتحجبة ، وأن كل الأضرار التي نتجت عن الحجاب لم يكن يُقام لها وزن . ثم إنهم كانوا يصوّرون المرأة الأوروبية في أحط نواحيها وتلك حجة أوردتها قاسم أمين نفسه حينما رد على الدوق داركور .

الخلاف إذن لم يكن في تربية المرأة ، ولم يكن في أن المرأة كانت في حاجة إلى التربية ؛ بل كان الخلاف حول تحجب المرأة أو سفورها . وقد اتجهت حياتنا الاجتماعية إلى السفور دون الحجاب . وقد حمل السفور في طبيعته كثيرا من الشرور التي توقعها قاسم أمين وخصومه ، ولكن انقضى بانقضاء الحجاب أكثر ما كان من شرور الحجاب .

كانت هذه إذن ملحمة من النقاش ، فإن لم يكن قد أفلح قاسم أمين في شيء إلا في أن يثير مثل هذا النقاش لكفاه ذلك فخرا . ولكنه حينما جمع ما قيل في نصرة آرائه إلى ما قيل في نقدها خرج وقد اقتنع برأيه أشد الاقتناع ، بل خرج وقد زاد يقينا في حرية المرأة . وبعد أن كان في « تحرير المرأة » معتدلا أشد الاعتدال يطلب تعليم الفتاة منهج الدراسة في التعليم

الابتدائي ، إذا به يخرج على الناس وهو يطالب بإشراك المرأة في التعليم بوجه عام ، وبينما كان يضرب المثل في تحرير المرأة بالمرأة الأوروبية إذا به يتجه إلى المرأة الأمريكية ، وكانت قد بلغت من الحقوق ما لم تبلغه المرأة الإنجليزية ولا الفرنسية . لذلك خرج كتاب « المرأة الجديدة » بدعوة شاملة إلى حرية المرأة . وكأنما زاده ذلك الفتح الجديد جرأة على جرأته ، وكأنما رأى الفكرة ناقصة وحاول أن يُكملها في « المرأة الجديدة » . وقد كان يفكر في وضع كتاب يُكمل هذه السلسلة من أعمال بعض من اشتهر من النساء في التاريخ ، لكنه توفي ولم تسنح له الفرصة بذلك .

بدا لقاسم أمين جلال الدعوة التي بدأ بها واستروح فيها نفحة من الحرية التي عاش يتنشقها في فرنسا وعاش يتشوق إليها في مصر . فأصبحت الدعوة للحرية ولمبدأ التقدم أو ما سماه هو « الكمال الإنساني » : نقول أصبحت الدعوة لكل ذلك بضعة من وجدانه . لذلك قرأ بين سنة ١٨٩٨ و ١٩٠٠ كل ما وجدته من الكتب عن حرية المرأة حتى يغدّي ذلك الوجدان المتكاثف . وكان محور قراءته جميعا ما قيل عن المرأة الأمريكية : فهو يفصل تاريخ المساواة بين المرأة والرجل في ولاية يومننج تفصيلا دقيقا فيترجم أقوال رؤساء الحكومة فيها في سنة ١٨٦٩ وفي سنة ١٨٧٣ وفي سنة ١٨٧٥ وفي سنة ١٨٨٢ . ثم هو يردّد ما قاله بعض الكتاب مثل بول بورجيه عن المرأة

الأمريكية ، وعن التعليم المختلط بأمريكا . وهو يتحدث عما ذهب إليه
ستيورت مل عن حقوق المرأة السياسية ثم هو يذكر تاريخاً مقتضباً للمرأة
في روسيا وفي فرنسا . ولعله أراد بذلك أن يفتح أذهان المصريين إلى أن
الحركة النسائية في العالم كانت عظيمة شاملة ، وإلى أن مثال المرأة الأمريكية
كان لابد أن يُحتذى في البلاد الأخرى . وهو في كل مرة يحاول أن يدل
القارئ على موطن العبرة في أن النساء صالحات للوظائف العامة في بلاد مثل
يومنج فلم لا يكون نساء مصر صالحات لأن يتعلمن فحسب ؟ ولم لا يكون
بعضهن صالحات لمزاولة التعليم وصناعة الطب ؟ إنه يعلم أن الغرض الأسمى
ينبغي أن يكون تعلم المرأة تعليماً كاملاً وبلوغها حقوقها تامة غير منقوصة ،
لكنه يرى أن المرأة المصرية في زمنه لم تكن أهلاً لبلوغ هذه الحقوق
ولا لمشاركة الرجل حقوقه السياسية العامة ، وقد كان حسبها أن تبلغ من العلم
ما يقوم بضرورات الحياة ، وما تسترشد به في حياتها العائلية ، أما الحقوق
السياسية فلم تكن قد تهيمات لها المرأة المصرية بعد .

إنه يقول بعد أن يبين الحقوق السياسية التي بلغت المرأة في أمريكا
« ولكن دعنا الآن من المزايا والحقوق السياسية ، فإني ما طلبت ولا أطلب
المساواة بين المرأة والرجل في شيء منها . لا لأنني أعتقد أن الحجر على المرأة
أن تتناول الأشغال العمومية - حجراً عاماً مؤبداً - هو مبدأ لازم للنظام

الاجتماعى . بل لأنى أرى أننا لا نزال إلى الآن فى احتياج كبير لرجال يحسنون القيام بالأعمال العمومية ، وأن المرأة المصرية ليست مستعدة اليوم لشيء مطلقاً ويلزمها أن تقضى أعواماً فى تربية عقلها بالعلم والتجارب حتى تنهيا لمسابقة الرجال فى ميدان الحياة العمومية »

فعلى الرغم مما أتى به قاسم أمين فى « المرأة الجديدة » من الموازنات بين المرأة فى أمريكا والمرأة فى إنجلترا وبين المرأة فى مصر ، وعلى الرغم من أنه دأب على تقصى حقوق المرأة السياسية فى أوروبا وكانت لا تزال أحلاماً تطوف بعقول الفلاسفة ، وعلى الرغم من أنه كان يأمل ذلك لأن هذا فى نفسه كان تحقيقاً لمبدأ « التقدم » أو « الكمال » الذى آمن به إيماناً شديداً ، نقول على الرغم من كل ذلك لم يطلب قاسم أمين المساواة بين الرجل وبين المرأة المصرية فى الحقوق السياسية ، وفى حق التوظيف بل هو يكتب « المرأة الجديدة » ليدافع عن حرية المرأة فحسب ، وليست فصول هذا الكتاب إلا تأييداً لفصول الكتاب الأول ؛ وهو تأييد يستند الى كثير من الأمثلة ، فإذا كان كتابه الأول دفاعاً عن الحرية فقد كان كتابه الثانى يتجه لذلك الدفاع . وهو يردد مرة أخرى مظاهر الاستبداد التى تظهر بها المرأة فى مصر ؛ وهى عنده لا زالت مستعبدة يذلها الرجل حيث كانت . فهى فى نظر الشرع

إنسان حر له حقوق وعليه واجبات ؛ ولكنها في نظر رئيس العائلة ، وفي معاملته لها ، ليست بحرة بل محرومة من التمتع بحقوقها الشرعية . وهذه الحال التي عليها المرأة اليوم هي من توابع الاستبداد السياسى الذى كان يخضعنا ونخضع له ؛ وهو يثبت بعد ذلك أن الشريعة التي منحت المرأة كل هذه الحقوق كانت أرقى من البيئة التي هبطت عليها . إنه يثبت أن تقدمنا الاجتماعى لم يكن فى درجة واحدة مع ما أتت به الشريعة السمحة . لذلك لا بد أن تتقدم هذه البيئة تقدماً اجتماعياً محسوساً حتى تبلغ مستوى المبادئ التي تضمنها الشرع . لا بد أن تتطور الحياة الاجتماعية فى الأمم المسامة حتى يُعترف للمرأة بشخصيتها الحرة وحتى تزول هذه الفكرة الخبيثة من أن المرأة ليست لها شخصية وليس لها حقوق .

ثم عرض إلى ما قيل من أن المرة تختلف عن الرجل ومن أنها خلقت أضعف وأن تركيبها الجسمانى والعقلى يختلف كل الاختلاف عن تركيبه . عرض لذلك كله وأتى بأراء لبعض الكتاب الفرنسيين والإيطاليين ينكرون أن هناك تلك الاختلافات التي بولغ في تصويرها ؛ ثم إنه يفرض أن هذه الاختلافات موجودة فهل يدعو ذلك إلى إنكار حقوق المرأة وهل يدعو ذلك إلى الاستبداد بها ومعاملتها معاملة الرقيق ؟ إن اختلاف العقول لا يكون سبباً لتجريد الإنسان من حريته ، وإلا فإن الرجال أنفسهم يختلفون فى

مبلغ التعقل والتفكير لكن أحداً لم يقل إن رجلاً يجب أن يقيد ويستعبد لأنه محدود التفكير .

والمرأة بعد ذلك مسئولة أمام الشريعة والقانون في الدنيا والآخرة ، فهي لا تُعفى من العقاب على جريمة تقتربها أو إثم ترتكبه . بل الرأي العام يجسم مسؤوليتها في بعض المواضع . فهل تؤخذ بكل جريمة ترتكبها ثم لا يكون لها بعد ذلك حرية التصرف في كل أمر من أمورها ؟ « إن عقلاً لا يقبل أن تُعتبر المرأة إنساناً كامل العقل والحرية من جهة استحقاقها لعقوبة الشنق إذا قتلت ، ثم تعتبر ناقصة العقل بحيث تُحرّم من حريتها في شؤون الحياة العادية »

وهو يسوق بعض الحجج التي تؤيد السفور وهو لا يتحدث هذه المرة حديثاً دينياً لأنه يكتفي بما بين من حدود الدين والشرع في « تحرير المرأة » بل هو يتحدث عن الحجاب وعلاقته ببطالة النساء وعما يجده النساء في هذه البطالة من عوامل التفكير الذاتي وعما يلقى منه من الأمراض التي تنتاب أعصابهن وهنّ بعد ذلك لا يحسنّ تربية الأطفال لأن تربية الأطفال في حاجة إلى من يحسن ملاحظة البيئة التي حوله ، أما هنّ فلا يحسنّ ملاحظة البيئة لأنهنّ منقطعات عنها .

كلام يذكرك بحديثه في « تحرير المرأة » لكنه في هذه المرة يأتيك

بالأمثلة تلو الأمثلة ، وهو يذكّر المصريين في كل صفحة من كتابه بأنهم كانوا يطلبون الحرية لأنفسهم ، وأنهم يجب أن يمنحوها نساءهم كما طلبوها لأنفسهم وهو يحذرهم كذلك أنهم إذا منحوها الحرية لنساءهم فسيقبلون على عصر من الفوضى في فترة الانتقال ، لكنّ الأمور لن تلبث حتى تستقر فتصبح حرية النساء عرفاً جارياً ، ونجني ثماره من حيث تعليم المرأة وتعليم الأطفال وإصلاح حال الأسرة ونهضة الأمة . وقد دلّت التجربة على أن الحرية هي منبع الخير للإنسان وأصل ترقّيته وأساس كماله الأدبي ، وأن استقلال إرادة الإنسان كانت أهم عامل أدبي في نهوض الرجال فلا يمكن أن يكون لها إلا مثل ذلك الأثر في نفوس النساء .

لكنّ كثيراً من الذين جادلوه قد ذهبوا إلى أن الحجاب واجب شرعي . فإذا أريد بالمرأة أن تتعلم فلها ذلك من سن السابعة إلى الثالثة عشرة . فالحجاب عندهم ليس بمانع المرأة من أن تتعلم . فإذا أريد بها أن تتعلم إلى ما بعد الثالثة عشرة وجب أن يُنشأ للنساء معاهد يعلمهن فيها النساء . وهنا يقف قاسم أمين وقفتين . فهو يقف وقفة أولى عندما يفرّق بين التعليم وبين التربية . وهذا الذي ستلتقاه فتاة في سن الثالثة عشرة بين جدران أربعة لم يكن إلا تعليمًا فحسب . إنه يتصل باللغة والحساب والجغرافيا وغير ذلك من

العلوم ، أما التربية فإنما يتناول (العمل) قبل كل شيء . وكل تربية لا تقوم على « عمل » فهي واهية لا أساس لها . ولا سبيل إلى هذا العمل إلا إذا زاولت الفتاة بعض الأمور ، وشاهدت بعض الحوادث ، ولاحظت بعض الناس ، وجربت بعض الأحوال . فهي عند ذلك تستطيع أن تستخدم ما جُبلت عليه من الموازنة ، وأن تختبر كل شيء بنفسها فتقوم معلوماتها على أساس من التجربة الصحيحة .

وعنده أنه « لا يكفي لإخراج المرأة المصرية من هذه الحياة الصناعية التي يشكو الكل منها أن تمكث بضع سنين في المدرسة ، ثم تنتقل منها إلى بيت تُحجب فيه بقية عمرها ، بل يلزم أن تستمر في الاعتناء بجسمها وعقلها بعد المدرسة ، ونشرها في حياتنا الطبيعية . يلزم أن نضع يدها في يدها ، ونسير معها في الأرض ، ونريها عجائب الكون ولطائف الصناعة ، ودقائق الفنون ، وآثار الزمن الغابر ، واختراعات الزمن الحاضر . يلزم أن تقاسمها أفكارنا وآمالنا ، أفرحنا وآلامنا ، وتحضر مجالسنا فتستفيد مما يُعرض فيها من الأخلاق والأفكار والمباحث ، وتفيدنا بحملنا على رعاية الحشمة والتأدب في القول » .

وهو يقف وقفة أخرى لمن قارن بين المدنية الأوروبية وبين المدنية الإسلامية فقد ذهب قوم إلى أن تحجب المرأة كان أصلا من أصول المدنية الإسلامية ، وأنها إذا تخلينا عنه فإنما نفكر الحياة الإسلامية على أنفسنا .

وهو لا يرى هذا الرأي ، بل هو ينكر على هؤلاء أنهم يتمسكون بمجد آبائهم القديم دون أن ينظروا إلى المستقبل . وهو يرى أنه لم تمر على الحياة في العالم صور الكمال ، بل الكمال موجود في المستقبل فينبغي أن نعيش للمستقبل . فإذا آمن فرد بمبدأ التقدم استطاع أن يتخلى عن كل تلك التقاليد التي تحد من تفكيره وتربطه بالقديم العتيق .

تلك هي جملة الأفكار التي ينطوى عليها كتاب « المرأة الجديدة » . إذا نثرتها جميعاً وجدتها كما أسلفنا تأييداً للأفكار الأولى التي وردت في « تحرير المرأة » . لكنها في بعض نواحيها أكثر طموحاً من أفكار الكتاب الأول . فإذا كانت فكرة قاسم أمين قد نشأت عند ما كان يرد على الدوق داركور فإنها بلغت عنفوانها في كتاب « المرأة الجديدة » حين أوضح فكرته عن الحرية وعن مبدأ التقدم وعن مركز المرأة في العائلة والمجتمع . هذه الوحدة الفكرية يجب أن نلاحظ نشأتها في كتاباته من مؤلف إلى مؤلف . وعلى الرغم من كل ما لقيت هذه الفكرة من نقد فإنها لم تكن إلا تعبيراً عن آمال رجل كان يعمل للمثل الأعلى . وكان يسمى هذا المثل الأعلى « الكمال الإنساني » وكان يرى أن حرية المرأة لازمة لبلوغ هذا الكمال .

فكرة الجامعة

لم يكن أمر التربية في الخمس والعشرين سنة التي تلت الاحتلال البريطاني مما يطمئن إليه المصريون . ذلك بأن المصلحين من الإنجليز لم يفكروا في التوسع في التربية إلا بالقدر الذي تسمح به مالية عاجزة يريدون إصلاحها . ثم إن الغرض من التربية أو التعليم عندهم لم يكن إلا غرضاً نفعياً محضاً . فقد كانت الحكومة في حاجة إلى موظفين ، وكان هؤلاء الموظفون يتخرجون في المدارس الابتدائية والثانوية فاقصر هم المسؤولين من الإنجليز على تخريج هؤلاء الموظفين أفواجا ، واضطروا في سبيل إنقاذ مالية البلاد إلى أن يقتصدوا في نفقات التعليم .

ولعل هذه النظرة كانت نتيجة لهذا الشذوذ الذي كان يميز موقف إنجلترا من مصر . فقد كان يحس الإنجليز بأنهم في قلق مستمر ، فهم لم يدخلوا البلاد فاتحين فيعلنوا الحماية عليها وضمها إلى ممتلكاتهم ، ولا هم يريدون التخلي عنها ؛ لذلك اضطرت سياستهم في شأن التعليم وبدلاً من أن ينظموا سياسة طويلة

المدى تدوم على مر السنين ، قصروا همهم على سياسة قصيرة المدى بحيث
تؤدى إلى الأغراض الحكومية التى تطلبوها من التعليم . لذلك نشأت فكرة
الشهادة فى مصر ؛ ولذلك كان للإجازات المدرسية هذه القيمة التى ما زال
نعانيها حتى هذه الساعة التى نحن فيها .

وأقبلت سنة ١٩٠٦ والحال على ما ترى . لكن النهضة القومية التى
بسطنا الكلام عنها فى معرض حديثنا عن عصر قاسم أمين كانت قد تمخضت
عن فكرة عامة شاعت بين فريق من المفكرين المصريين ؛ تلك هى فكرة
الجامعة .

وفى الثانى عشر من أكتوبر من هذه السنة اجتمع هؤلاء فى منزل
سعد زغلول وكان يتولى سكرتارية هذه الجلسة قاسم أمين ؛ وأخرجوا للأمة
البيان التالى وهو الذى يحمل فكرة أبائنا حينما فكروا فى إنشاء الجامعة
المصرية منذ نيّف وثلاثين عاما .

« فى هذه السنة هبّ فى الرأى العام تيار من نفسه لتحقيق هذه الأمنية؛
لأن الأمة انتهت بأن تفهم تمام الفهم أن طريقة التعليم فيها ناقصة ودائرته
ضيقة تقف وتنتهى بالطالب عند بلوغ الغاية ، وأن من وراء الحدود التى
المحصر فيها معارف سامية ، وحقائق عالية وقضايا جلية ، ومشكلات غامضة ،
تشتاق النفوس إلى حلها ، واختراعات جديدة وتجارب بدیعة واختبارات

كثيرا ما شغلت وتشغل عقول كبار العلماء في أوروبا ولا يصل إلينا منها
إلا صدها الضعيف ... »

تلك مقدمة البيان الذى خرج من بيت سعد زغلول ، تستطيع أن تلمح
وراءه قاسم أمين سكرتير اللجنة التى أخرجته ، وهو يدلك على أن سعدا
وقاسما وأصحابهما كانوا يقدرون كل التقدير رسالة هذه الجامعة التى أرادوا
إنشاءها . لقد كانوا وطنيين ؛ وكانت الوطنية تتمثل عندهم فى أن تقوم بلادهم
بقسطها من حيث العلم والفلسفة والقانون والفن . ثم لم يكونوا يرضون بأن
يكون كسب المال ، أو تكون الوظيفة هى الغرض الأول والأخير من التربية
وكان قاسم أمين يعبر عن رأيهم فى ذلك أوضح تعبير .

وفى ١٥ من أبريل سنة ١٩٠٨ ألقى قاسم أمين خطابا جامعا فى سرايه حين
وقف حسن باشا زايد خمسين فدانا على الجامعة المصرية الناشئة . وفى هذا
الخطاب يوضح فكرة الجامعة مرة أخرى إذ يقول :

« نحن لا يمكننا أن نكتفى الآن بأن يكون طلب العلم فى مصر وسيلة
لمزاولة صناعة أو للالتحاق بوظيفة ، بل نطمح فى أن نرى بين أبناء وطننا
طائفة تطلب العلم حبا للحقيقة ، وشوقا إلى اكتشاف الجہول : فئة يكون
مبدؤها التعلم للتعلم . نود أن نرى من أبناء مصر كما نرى فى البلاد الأخرى ،
عالما يحيط بكل العلم الإنسانى ، واختصاصيا أتقن فرعا مخصوصا من العلم ،

ووقف نفسه على الإلمام بجميع ما يتعلق به ، وفيلسوفاً اكتسب شهرة عامة
وكتاباً ذاع صيته في العالم — وعالمًا يرجع إليه في حل المشكلات ويحتج
برأيه . أمثال هؤلاء هم قادة الرأي العام عند الأمم الأخرى ، والمرشدون إلى
طرق نجاحها ، والمديرون لحركة تقدمها ، فإذا عدمتهم أمة حل محلهم الناصحون
الجاهلون والمرشدون الدجالون »

ثم هو يتحدث في هذا الخطاب عن المتخرجين في المدارس العليا فلا
يرضى بهم لأنهم يعيشون على مبدأ « اكسب كثيرًا واتعب قليلًا » وهو
يأمل أن تدب في الشباب روح العمل الصالح ، وأن تكون الجامعة المصرية
مهبطًا لتلك الحركة العلمية المباركة التي دعا إليها أصحابه ، ودفعهم إلى الدعوة
إليها شعورهم الوطني ، وحاجتهم إلى العلم الخالص .

ذلك إذن أثر قاسم أمين فيما يتصل بفكرة الجامعة . وإذا أنت بحثت
ما قاله المرحوم ثروت باشا حين افتتحت الجامعة المصرية بعد ذلك بشهور ،
وإذا أنت درست ما أذاعه المغفور له الملك فؤاد في سنة ١٩١١ ، حين كان
رئيس الجامعة المصرية ، وجدت أن فكرة قاسم أمين قد تنشأت . بل إذا
أنت حاولت أن تدرس وظيفة الجامعة في هذه الساعة التي أنت فيها لم تستطع
أن تحددتها إلا بما قاله قاسم أمين حين أذاع بيانًا في سنة ١٩٠٦ وحين ألقى
خطابًا في سنة ١٩٠٨ .

« الجامعة هي جماعة من العلماء أخلصوا للعلم فوقهموا عليه ملكاتهم ووقتهم كما يقف الرهبان أنفسهم على عبادة الله . وإلى جانب أولئك العلماء شبان أذكىاء : يخدمون العلم كما يخدمه أساتذتهم على السواء عن طريق التعاون من جانب الطلبة ، والإرشاد من جانب الأساتذة . والجامعة لذلك وحدة اجتماعية متضامنة الأفراد الذين يؤلفونها : من الأساتذة والطلبة والمتخرجين . فمن الخطأ الظن أن أغراض الجامعة تنحصر في شيء واحد هو تحضير موظفين لإدارة الحكومة . وإنما أنشئت الجامعة القديمة منذ ثلاثين سنة لتؤلف بيئة مستقلة فيها . يبحث كل عضو من أعضائها عن الوسائل المؤدية لكمال وجوده الخاص على أساس من حرية التفكير والنقد على وجه الاستقلال ، لا الحفظ والتصديق لكل ما يقال . »

تلك فقرة من حديث ألقاه الأستاذ لطفى السيد باشا في ديسمبر من سنة ١٩٤٠ حين كان مديرا للجامعة ، وهو يذكرنا بذلك الحديث الذى تحدث به قاسم أمين فى إبريل سنة ١٩٠٨ قبل أن يموت بأسبوع واحد وقبل أن تصبح الجامعة حقيقة واقعة .

قاسم أمين الأديب

رأيت فيما مرّ بك من صحائف هذا الكتاب أن قاسم أمين قد اشتهر بإصلاحه الاجتماعي وأنه قد بلغ مكاناً جديراً بالذكور حتى لقد اقترن اسمه باسم تحرير المرأة في مصر إلى الساعة التي نحن فيها . ولكنّ لقاسم أمين وجهاً آخر ينبغي أن نخلله لك وينبغي أن نبسط لك الكلام فيه . ذلك أنه كان أديباً يهتم بإصلاح اللغة، ولو أنه عاش طويلاً لاستطاع أن ينتج من كتب الأدب ما يذيع صيته بوصف أنه أديب وناقد .

والأديب يمتاز بإحساس مرهف وبأن إحساسه يتأثر وينفعل . وقد كان قاسم أمين من أولئك الذين كبرت عندهم العاطفة ، فاستطاع أن يندس بإحساسه في كل مكان وفي كل بيئة فيصوّر لنفسه أفكار الناس وآمالهم ويصوّر في كتابته بعض تلك الأفكار والآمال . هو يرى الناس كيف يتصرّفون فيما قلّ أو جلّ من أمورهم ثم هو يرجع إلى نفسه ليرى هؤلاء

الناس في النور الذي يضيفه عليهم خياله . لذلك يشترك قاسم أمين وكبار الأدباء العالميين في أنه يهتم بدقائق الأمور حتى يستخرج منها جلائلها . كان يحيا حياة عاطفية تستطيع أن تستوعب كثيراً من الإحساسات وحاول أن يصور كل هذه في كلمات قليلة انتشرت في كتبه وُجمع بعضها أخيراً في كُتيب صغير اسمه « كلمات قاسم أمين » .

ولسنا ندرى إذا كان قد أتيح لقاسم أمين أن يكتب في الأدب التمثيلي أكان يكتب مسرحيات تشا كل مؤلفات الروائيين من أدباء الغرب ؟ إن قوام الأدب هو تلك الحساسية التي نراها عند قاسم أمين ، على الرغم من أنه لم يترك إلا نبذاً غير متماسكة يصف فيها بعض وجوه الحياة في عصره . وهو يعلم حين يكتب ذلك أنه يقف موقفاً زوائياً أو قل مسرحياً من الحوادث التي يرى . وهو يقول في كلمة له « يقصد الناس التياترات لرؤية الحوادث الغريبة وسماع القصص المضحكة أو المبكية . والعاقِل يكتب بما يراه حوله ويسمعه ، يتفرج مجاناً على وقائع لم تبلغها مخيلة المؤلفين ولا مهارة الممثلين » . وما نحسب إلا أن قاسماً قد استجاب لكل الوقائع التي رأى فافعل لآثار بيئته ولو أنه أوتي حظاً من التأليف الروائي لخرجت من بين يديه مسرحيات تطاول ما ألفه المؤلفون المسرحيون؛ وحسبه أن كلماته التي لم تبلغ الستين صحيفة لم تزل معرضاً لنواح كثيرة من حياة الجيل السالف . معرضاً أحسن تصويره أيما إحسان .

ولعلنا نطيل كثيراً إذا حاولنا أن نحصى ما صوّره قاسم أمين من حياتنا المصرية يومذاك . فهو في مرة يصف حياة خمسة من الشيوخ أحيوا على المعاش فظلوا بعضهم لبعض صديقاً لا يكادون يفترقون . وقضوا أيامهم الأخيرة في سعادة سكنوا لها في صحبتهم الهائلة . وقضوا أوقات فراغهم في لعب الطاولة وفي مناقشات بريئة صاحبة عن السن . قضى الموت بعد ذلك على أربعة منهم وبقى خامسهم منفرداً كئيباً لا يتكلم ولا يخرج من بيته؛ لا يدرى ماذا يصنع بحياته ويرقب الموت الذى يخلصه منها .

وهو يكتب في مرة أخرى عن متطفل دخل على صاحب دار كان قد دعا ستة أو سبعة من أصدقائه إلى الأكل فى داره ، ويصفه قاسم أمين فيقول : « فاضطر صاحب المنزل إلى أن يدعوه الى الأكل معنا ، فدخل أماننا واختار لنفسه أحسن مكان ، وكان أول الجالسين . جلس على الكرسي القرفصاء فانفتح قفطانه وظهرت سراويله ؛ ثم برم كم القفطان والقميص الذى تحته برماً محكاً فانكشف الساعد إلى المرفق فتمثل لى جالساً فى مكان من الميضاة يستعد للوضوء . اشتغل بالأكل ولم ينطق بكلمة أو يصغح لحديث . ولما كان بعيداً عن المائدة كان كلما يتناول شيئاً من الطعام يسقط بعضه على ملابسه . وكان يلقي العظام على مفرش المائدة . فلما امتلأ

بطنه أخذ ينكش أسنانه ويخرج منها فضلات الأكل فيقذفها من فيه بقوة عيماً وشمالاً .

وأنت تقرأ له كل هذه الفقرات فتروعك الصور التي يصورها بأسلوب بسيط يكاد يبلغ حد السذاجة . اقرأ له قصة الفلاحين والشعبان ، وقصة أخرى عن فتى مغرور يطلب وظيفة ، وقصة ثالثة عن مصريين ذهبوا إلى متحف اللوفر في باريس . كل هذه كانت بؤادر شخصية أدبية تفننت في الوصف ، وليتها أكرت من الوصف وأطالت من الرواية .

ولابد لنا أن نتحدث عن أسلوب قاسم أمين :

لقد عاش في عصر من عصور التحول اللغوي ، وكان أحد الكتاب الذين تأثروا بهذا العصر كما أثروا فيه . نقول إنه كان عصرًا من عصور التحول لأن اللغة العربية في مصر قبل هذا العصر كانت جامدة ولأنها كانت لغة ألفاظ مرصومة تنقيد بالسجع المتكاف ولا يطابق لفظها معناها . كانت اللغة العربية كما قال المرحوم توفيق رفعت باشا في بعض أحاديثه « قد انتهت في صدر عصر المرحوم إسماعيل باشا إلى أن أضحت رواسب تجمعت فيها العكارات التي خالطتها من مدخل الفتح التركي . فهي بين عامية تشيع فيها التركية وبعض العبارات الأفرنجية ، وبين عربية متعسفة متكلفة لا تمتد إلى

فكرة قيِّمة ولا تتناول إلى معنى جليل ، أتجاهها كله إلى إصابة غرض بديعى ، إن وافقت في طريقها معنى وإلا فلا م المعانى الهبل « . أما العصر الذى يبدأ من سنة ١٨٨٠ وما بعدها فقد كان عصر تحلل من قيود اللفظ وكان كذلك عصر ابتكار فى المعنى وإحياء لألفاظ اللغة الدارسة حتى تقوم بحاجات المجتمع الجديد .

كان قاسم أمين كاتباً من هذه الفئة التى تحللت من الأسلوب القديم وكتبت بالأسلوب الجديد . ولقد تأثر باللغة الفرنسية فقد كان يقرأها بنهم وكان يكتب الفرنسية بأسلوب سلس منطقي أخاذ . وكذلك كان يقرأ كتب الدين الإسلامى وكان يطّلع على ما يكتبه رجال الأدب الناشئون . فخرج من ذلك وله أسلوب عربى سلس جمع بين فضائل الأسلوب الفرنسى وبين مزايا الأسلوب العربى . فقد كان ينظر إلى اللغة كأنها تعبير صادق عن النفس ، فلم يتكلف ولم يتعمّل ولم يقف ليوفّق سبعة واحدة ، ولم يترك لفظاً يسيراً مفهوماً ليكتب لفظاً آخر عسيراً غير مفهوم .

لقد اشتهر أسلوب النثر الفرنسى بالوضوح ؛ تناولته أذهان الكتاب والنقّدة الفرنسيين حتى بلغ مداه فى القرن التاسع عشر . وقد قرأ قاسم أمين لأغلب الكتاب الفرنسيين المعاصرين ، فخرج من قراءته بفكرة سامية عن الأسلوب طبقها على كتابته العربية ما استطاع إلى ذلك سبيلاً . وتتلخص

فكرته عن أسلوب الكتابة في هذه الكلمة التي كتبها يوازن فيها بين
الأسلوب الأوروبي في عصره وبين الأسلوب العربي :

« الكاتب الحقيقي يجتنب استعمال المترادفات ، فلا يأتي باسمين مختلفين
لمعنى واحد في مكان واحد ، لأن ذلك يكون حشوا مستهجنا ودليلا على فقر
في الفكر والخيال . ولكن إذا كان المقال يستدعى ذكر عدة معانٍ متقاربة
يجمعها معنى واحد فاستعمال المترادفات الموضوعية لها حسن ؛ وقد يكون مطلوبا
إذا كان لازما لتسهيل فهمها أو إظهار الفروق التي بينها . كذلك الكاتب
الجيد لا يضع صفة بجانب الاسم إلا إذا اقتضى الحال أن يميزه بصفة مطابقة
للواقع ؛ على أن الاعتماد على ذكر الصفات والمبالغة فيها بقصد التأثير هو أقل
درجات فن الكتابة ؛ ويفضلها بكثير طريقة الكتاب الغربيين الذين يعولون
في الوصف على ذكر الوقائع وشرح ظروفها وتحليلها تحليلًا دقيقًا ، أو تشرح
الإنسان وفتح جوفه وكشف ما خفي من أعصابه وسرغور أحشائه ، والتسمع
على نفسه لإدراك ما يدب فيها من النزعات والخواطر والأميال والحركات .
ويصف منظر الشيء بهيكلة العام بأجزائه كلها ليحدث في نفس القارئ
أو السامع صورة كاملة وشعورا تاما وأثرا باقيا . »

وإذن فقد كان يريد أن يتحاشى المترادفات ما أمكن ، وكان يريد أن
يتجنب الصفات التي تلصق بالأسماء للتفخيم فحسب ، وكان يريد أيضا أن يصف

« الوقائع » الصغيرة ويشرح ظروفها حتى تتم صورة كاملة من صور الذهن .
 أنت تقرأ له وصفا لجنازة من تلك الجنازات التي كانت شائعة في الجيل
 الماضي ، فتخال أنك تطلع على فلم سينمائي ، وتخرج من هذا الوصف وعندك
 صورة ذهنية تامة عن مثل هذه الجنائز « هؤلاء الفقهاء الذين يحجر بعضهم بعضا ،
 وليس فيهم إلا الأعمى والأعرج والأعور ويمشون بسرعة غير منتظمة لابسين
 ثيابا بقدرة صائحين بأصوات مزعجة : كلمات تخرج من حناجر مختنقة بنفحات
 شنيعة ، وهذا النعش المحمول الذي يتخبط فيه الميت ويلتفت تارة إلى جهة
 اليمين وتارة إلى جهة الشمال ...

« وهؤلاء النسوة اللاتي صبغن أيديهن ووجوههن ، وغفرن بالتراب
 رءوسهن ، يمشين وراء النعش مشيرات بالمناديل إليه بإشارات مريضة مصحوبة
 بألفاظ مرتلة — ما هذا كله ؟ أجمع مجانين أم نفر بهم مس من الشياطين ؟
 العوبة أطفال ؟ أم معرض كرنفال ؟ » .

ذلك مثل للأسلوب الأدبي الذي كتبه قاسم أمين . لا تستطيع أن
 تقيسه بغيره من أساليب الكتابة العربية القديمة ؛ لكن فيه شيئا مما قاله
 قاسم أمين حينما تحدث عن طريقة الكتابة عند الغربيين ، وحينما قال إن
 وصف الشيء بأجزائه كلها يحدث في نفس القارئ أو السامع صورة كاملة .
 لكن هذا الأسلوب الوصفي الذي رأيت طرفا منه في هذا الذي نقلت

إليك لم يكن وافرا في كتابات قاسم أمين . وأنت تعلم أنه لم يكتب بالعربية إلا كتابين هما تحرير المرأة والمرأة الجديدة وأن كتابه الثالث صغير لا يحتوى إلا على بضع كلمات . فلم يتح لقاسم أمين أن ينفى هذا الأسلوب الذى رأيت بدايته . أما أسلوبه فى كتابيه الأساسيين ففيه شئ من هذا لكنه أسلوب منطقي جدلى . إنه يذكرك لك القضايا المنطقية كما يذكركها المحامى الذى يريد أن يكسب قضيته . فأسلوبه من هذه الناحية واضح لا يحتمل الشك ولا الغموض ، وقد يذكرك لك سلسلة بأكملها من الحجج لإثبات قضيته ثم ينتهى بك إلى سلسلة أخرى من الأسئلة الإنكارية يعنى بها فى إثبات ما يرى . وما يزال بك حتى يقنعك بالحجج التى أوضحها الواحدة منها بعد الأخرى . فأسلوبه المنطقي يشبه فى كثير من النواحي أسلوبه الوصفى ، لأنه فى كليهما يحاول أن يوضح الأجزاء حتى تكمل الصورة الذهنية ، وقد تكون هذه الصورة الذهنية وصفا أدبيا لشئ من الأشياء وقد تكون سلسلة من القضايا المنطقية تسوق الإنسان إلى استنتاج منطقي واحد .

وقد كان لقاسم أمين فكرة سامية عن تطور اللغة وعن تقدمها من درجة إلى درجة . وكانت هذه شعبة من فكرته عن التطور التى بحثناها فى فصل سابق . كان يرى أنه يجب أن يفتح باب الاجتهاد فى اللغة كما يفتح فى

التشريع . وقد كان في مصر فئة من الكتاب يحسبون أن اللغة العربية قد وسعت كل شيء ، وأنها ليست بحاجة إلى أن تزود أو تستعير من اللغات الأخرى . كان عند هؤلاء نعة جافة أو قل إنها كانت إقليمية متممة . كانوا يرفضون كل أسلوب جديد ، وكل كلمة جديدة . أما قاسم أمين فقد كان يرى أنه لا حياة للغة لا تتطور . فاللغة نفسها تتأثر بالبيئة التي هي فيها ، وما دامت البيئة الإنسانية في تطور مستمر فإن اللغة في تطور مستمر أيضا . واللغة التي كان يريد أن يحتفظ بها أهل القرن التاسع عشر هي لغة الحضارة العربية في القرن الثامن الميلادي لولا أنها كانت قد فقدت كثيرا لما أهملت علومها وآدابها . لذلك كان يرى قاسم أمين أن باب الاجتهاد في اللغة يجب أن يُفتح على مصراعيه وأن الابتكار والاستعارة من اللغات الأخرى كليهما وسيلة لتقدم اللغة وفي ذلك يقول : « يظهر أن باب الاجتهاد أُغلق في اللغة كما أُقفل في التشريع فقد صار من المقرر بيننا أن اللغة العربية وسعت وتسع كل شيء » .

« لكي يكون هذا الاعتقاد صحيحاً يجب أن نقرض أن هذه اللغة نتيجة معجزة ، فظهرت كاملة من يوم وجودها في العالم . وهذا يناقضه قيام الدليل على أن جميع اللغات خاضعة لقوانين التحول والرق العام ، وتابعة في أطوارها لسير الإنسانية ؛ فهي إذن مظهر من مظاهر غريزتها الطبيعية التي لا تزال

تُنتج وتُبدع كما فعلت في الماضي . ولا أدري لماذا يريد قومنا أن يستبعدوا من اللغة العربية الكلمات الفصيحة وطرق التعبير الجميلة التي نسمعها أحياناً في لغة العامة بحجة أنها لم ترد على لسان العرب .
« نحن خلفاء العرب في لغتهم فكل ما اخترعه ملكاتنا في اللغة يُعد عربياً بالطبع » .

كانت هذه أفكاراً ثورية لكنها تدلّ على أنه كان يحسّ ب حاجتنا إلى الإصلاح في ناحية اللغة . وقد يبدو رأيّه هذا غريباً لبعض الذين لا يؤمنون بالتجديد ، قد يبدو غريباً لبعض الذين يرون أن لغة العرب لها قداسة تجعلها أعلى من أن تمس . لكنه لا يبدو غريباً لمن يتتبع نمو لغة كالإنجليزية . ففي الحق إن اللغة الإنجليزية عاشت كلاً على اللغات الأخرى في كل أطوارها . هناك ذلك الفيض من الكلمات الإغريقية واللاتينية ، ثم هناك آلاف الكلمات التي استعارتها لغة الانجليز من الفرنسية والإيطالية والأسبانية في عصر النهضة ، وهناك بعد ذلك آلاف الكلمات الأخرى التي استعارتها هذه اللغة من البلاد التي شملتها الامبراطورية البريطانية ؛ بل هناك كلمات انتحلتها اللغة الانجليزية من لغة العرب ولغة الفرس ولغات الهند ؛ فاللغة الإنجليزية أصبحت أغنى لغات العالم لأنها كانت مرنة ولأنها التقت بالثقافات الأجنبية

فتأثرت بلقائها واستعارت منها المفردات واصطقتها وأدخلتها في معجمها . بل قد لا يبدو الرأي الذي ذهب إليه قاسم أمين غريباً لمن درس أطوار اللغة العربية نفسها . فقد صاحبت اللغة العربية حضارة الإسلام الأولى ولم يتحرج العرب من أن ينتحلوا لأنفسهم كلمات زادوا بها لغتهم . في لغة العرب ألفاظ فارسية ، وفيها ألفاظ إغريقية ، وفيها أيضاً مفردات تمت في أصولها إلى العبرية والسريانية . واذن فقد كانت لغة العرب مرنة في عصورها الزاهرة . وهذه المرونة نفسها هي التي دعا إليها قاسم أمين ، وهي نفس المرونة التي ما يزال فريق كبير من اللغويين يدعون إليها . حرية الاصطناع والابتكار في الألفاظ وأخذ أساليب العامة الحبيبة إلى قلب القارئ العربي ، وتصفية كل ذلك وتنقيته : هذه جميعاً أسس يجب أن يقام عليها بناء اللغة على أن يكون كل ذلك تحت أعين الرقباء الأخصاء .

على أن لقاسم أمين رأياً آخر أشد ثورة على اللغة العربية وأبعد من رأيه الأول من وجهة التنفيذ . فقد ذهب إلى أن الذي يعطل اللغة العربية هو الإعراب . إنه يرى أن اللحن شائع بين الذين يقرأون اللغة العربية ، وأن قواعد النحو نفسها هي التي تحول دون الفهم . وهو يشرح رأيه في كلمات ما يزال يرددها بعض المفكرين كما ضاقوا بالإعراب وقواعد اللغة .

يقول قاسم أمين في شرح رأيه ما يلي : —

« لم أر بين جميع من عرفتهم شخصا يقرأ كل ما يقع تحت نظره من غير لحن . أليس هذا برهانا كافيا على وجوب إصلاح اللغة العربية ؟
« لى رأى فى الإعراب أذكره هنا بوجه الإجمال وهو أن تبقى أواخر الكلمات ساكنة لا تتحرك بأى عامل من العوامل بهذه الطريقة . وهى طريقة جميع اللغات الأفرنكية واللغة التركية أيضا — يمكن حذف قواعد النواصب والجوازم والحال والاشتغال الخ . بدون أن يترتب عليه إخلال باللغة إذ تبقى مفرداتها كما هى .

« فى اللغات الأخرى يقرأ الإنسان ليفهم ، أما فى اللغة العربية فإنه يفهم ليقرا . فإذا أراد أن يقرأ الكلمة المركبة من هذه الأحرف الثلاثة « ع ل م » يمكنه أن يقرأها عِلْمٌ أو عِلِمٌ أو عِلْمٌ أو عِلِمٌ أو عِلْمٌ أو عِلِمٌ . ولا يستطيع أن يختار واحدة من هذه الطرق إلا بعد أن يفهم معنى الجملة فهى التى تعين النطق الصحيح . لذلك كانت القراءة عندنا من أصعب الفنون » .

ولا شك أن هذه مشكلة أخرى من مشا كل اللغة العربية لىكنانى أن قاسم أمين قد أسرف حيث قدّر العلاج . قد لا يبدو أمر استعارة المفردات والألفاظ غريبا لأن ألفاظ اللغة نفسها فى تطور دائم ولأنها مهما استعارت

أو انتحلت من ألفاظ اللغات الأخرى فهي لن تفقد شيئا من كيائها . فإذا أنت استعملت « الوابور » أو « الأتوموبيل » في كتابتك فأنت لم تضحّ بشيء من لازمات اللغة . أما إذا أنت حاولت أن تتجاهل الإعراب والقواعد فإن لغتك لن تكون لغة عربية بل قل إنها لن تكون أية لغة معروفة حتى الساعة .

ذلك بأن لكل لغة ميزات تمتاز بها وأساسا تقوم عليها ؛ أو قل إن لكل لغة تركيبية خلقا خاصا لا تكون لغة إلا به . واللغة العربية لغة تركيبية تمتاز بأحوال البناء والإعراب ، وتختلف فيها المعاني وتشكل حسب الحركات التي تراها في آخر كل كلمة من كلماتها . والفاعل والمفعول فيها يختلفان باختلاف الحركة ، وقل كذلك في حالات الإعراب الأخرى . وليست حالات الإعراب هذه إلا حالات تتغير بتغير الفكرة . وإذا كان النحويون قد أسرفوا في خلق حركات الإعراب وحركات البناء ، وإذا كانوا قد فرقوا بين العلامات الأصلية والعلامات الفرعية ، بل إذا كانوا قد ميزوا بين الإعراب التقديرى والإعراب الحلى ، فإنه لم يدعهم إلى ذلك إلا الأفراط في الدقة والسخاء في الاصطلاحات وإلا حدّ بهم على أن يستكثروا في اللغة من المعاني التي لا شك أنها تتضح وضوحا ظاهرا حينما ندقق في أمر الحركات والعلامات .

أما إذا نحن وقفنا بالسكون عند آخر كل كلمات اللغة العربية فإن هذا في نفسه قتل لروح اللغة . إن هذا معناه أن هذه الألوان التي تروح وتغدو عند كتابة اللغة العربية سوف تنطمس فيبدو وجه اللغة حالكا أغبر . زد على ذلك أن منطق اللغة نفسه وهو قائم على حركات الإعراب سوف يتصدع ، بل زد على ذلك أيضا أن ميراثنا من الشعر والحكمة سوف يتزائل لأن أساس الشعر العربي هي تلك الأنعام التي تؤلفها حركات الأعراب . وليس هناك وجه للمقارنة بين اللغة العربية وبين اللغات الأخرى في هذا الأمر لأن هذا الأمر قد اختصت به اللغة العربية وحدها .

إذن فلم يكن قاسم أمين موفقا كل التوفيق في العلاج الذي رآه ليجتنب اللحن . ولا نظن أن الذين لقوا لفة ممن جاءوا بعده كانوا موفقين . وليس علاج المشكلة عندنا في حذف حركات الأعراب كما ذهب إليه قاسم أمين بل علاجها في طريقة التدريس .

فمداومة التدبر وإحسان طرق التعليم وغير ذلك من المؤثرات الفعالة كفيلة بأن تجعل اللغة العربية قيمة تركيبية . ولكن لن يكون علاجاً أن نقف بالسكون في آخر كل كلمة من الكلمات إلا إذا حاولنا أن ننشئ لغة أخرى غير العربية .

وعلى الرغم من كل ذلك فقد رأيت كيف كان قاسم أمين يحس بأن اللغة في تحول . بل لقد رأيت متاثراً بالأسلوب الفرنسى ثائراً على الأسلوب الضعيف الذى يتقيد بالفاظ مرصوفة فقدت ألوانها ، ثم رأيت بعد ذلك يقترح إصلاحاً للغة لم يوفق فيه كل التوفيق ، لكنه كان من أول الذين لمسوا حاجتنا إلى الإصلاح . وقيام الجمع اللغوى بعد موته بثلاثين سنة كان دليلاً على حاجتنا إلى الإصلاح اللغوى ولا زالت المشاكل التى أثارها جديدة ماثلة أمامنا فيما نقرأ وفيما نسمع .

آثاره

لا بد لنا بعد أن تحدثنا عن قاسم أمين من مختلف نواحيه أن ندرس الأثر الذي خلفه في الحياة المصرية . وحياة المصلح وحدة في نفسها تبدأ من بدء دعوته لكنها لا تنتهى بموته مطلقاً . حياة المصلح قد تمتد أجيالاً بعد موته .

ولقد كانت حياة قاسم أمين وحدة خاصة تعددت جوانبها ، كانت وحدة من الأفكار والآراء والمبادئ والعقائد ، وكانت وحدة يميّزها الذكاء وسعة العقل وبعد النظر . لكن هذه الوحدة لم تنقطع حينما توفي صاحبها في ليلة الثالث والعشرين من شهر أبريل سنة ١٩٠٨ . بل هي ماثلة إلى اليوم لأن هذه الأفكار والمبادئ لا زالت حيّة تروح وتغدو في البيئة المصرية كلما قلبت النظر في أية ناحية من نواحيها .

لقد ظلّ الكتّاب في مصر يرجعون إلى آراء قاسم أمين كلما واجهتهم إحدى المشاكل ، وظلّ المفكّرون يضربون به المثل في الشجاعة والجرأة . ذلك لأن آثار قاسم أمين كانت جميعها تتصل بأسس الحياة المصرية . فهو لم ينظر إلى الساعة التي هو فيها بل نظر دائماً إلى المستقبل ، وهو لم يختص تفكيره بسنة أو بضع سنين ، بل شغل تفكيره الجيل بعد الجيل ، لذلك توفي قاسم أمين ، لكن المشاكلك التي درسها لا زالت ماثلة أمامنا ، بعضها قد أتيح لها أن ينحلّ ، وبعضها الآخر جاثم يريد أن ينحلّ .

ما تزال أمامنا مشكلة التربية . فهل أفلحت مدارسنا في تربية الأطفال والأولاد تربية حرة مستقلة تقوم على العمل لا على القول ؟ وهل أفلح المربون عندنا في أن ينتزعوا حب النفس والأنانية من صدور الأفراد ؟ ثم هل أفلح المصريون في أن يتخذوا من العلم قوة يصمدون بها أمام المغيرين من أهل الغرب ؟ لا زالت كل هذه المشاكلك ماثلة أمامنا نجاهد في حلّها . ثم هل انتظمت العائلة عندنا حتى استطاعت أن تخرج فتياناً متحلّين بأجمل الصفات وهل بلغت التربية المنزلية عندنا ما كان يصبو إليه قاسم أمين . كل ذلك لا زال حديثاً يعتوره الشك من كل جانب .

ثم ماذا حدث في مشا كل الوظائف والموظفين ؟ لا زالت الوظيفة في الحكومة هي الغاية التي يسعى لها الأفراد ، وما زال الغرض من العلم عندنا غرضاً معاشياً على الرغم من أن قاسم أمين قد دعا إلى إنشاء الجامعة حتى يطلب العلم لذات العلم . وسيظل قاسم أمين مذكوراً كلما ذكرت رسالة الجامعة وسيظل مذكوراً كلما دُرست مشكلة الموظفين . لقد كان يرى أن الوظيفة الحكومية فرصة لتحقيق غرض وطني أسمى ، وكان يرى أن في القيام بواجب الوظيفة إرضاء للضمير الوطني . كم من الموظفين عندنا يضعون نصب أعينهم خدمة الوطن متجردين عن التحيز والهوى ؟ لا شك أن كثيراً من أصحاب الوظائف لا زالوا في حاجة إلى دراسة كلمات قاسم أمين .

وماذا حدث أيضاً في اللغة ؟ لقد تطورت اللغة العربية تطوراً رشيداً في السنوات الست والثلاثين الماضية . وتحسن أسلوب النثر حتى أصبح وافياً بكل غرض من أغراض الكتابة . ثم لقد أنشئ مجمع فؤاد الأول للغة العربية ليحلّ مشا كل اللغة . وعلى الرغم من كل ذلك فنحن لا نزال ننتظر تلك الدفعة التي تيسر اللغة وتوفق بين الأصل العربي الصحيح وبين حاجات العامة . وقد كان قاسم أمين أول من استكشف هذه المشكلة وأول من تحدث

عنها حديثاً ردّده الناس حتى الساعة التي نحن فيها على الرغم من أنه بالغ في إنكار الإعراب وما يحوط مسائله من صعب .
ثم ماذا ؟ ثم مشكلة المرأة ؟ .

لقد كان أثر قاسم أمين عظيماً جداً في تاريخ المرأة المصرية . وإليه يرجع الفضل في النهضة النسائية التي حدثت في مصر فميزتها عن سائر أمم الشرق الأدنى . وقد كانت صحيحة قاسم أمين إذانا بتحرير المرأة على الرغم من أن البيئة المصرية في عهده لم تكن مهيأة لمثل هذا التحرير . لكن شأن الإصلاح الاجتماعي أن يكون بطيئاً خفياً . وقد كان أثر الدعوة التي قام بها قاسم أمين بطيئة خفية كذلك . ثم تهيأت الظروف لتحقيق هذا الإصلاح . فكانت النهضة النسائية التي قامت في مصر بعد الحرب الكبرى . وقد تناول الكثير من الكتاب والكاتبات مذهب قاسم أمين ، بل لقد أنشئت مجلات خاصة للدفاع عن المرأة . ثم إن باحثة البداية كانت أول مصرية مسلمة جاهرت بالدعوة لمذهب قاسم أمين وقد ألفت في هذا الموضوع سلسلة من المحاضرات في الجريدة وتوفيت في سنة ١٩١٨ ، وهي تكتب كتاباً في « حقوق النساء » .

لم تنل المرأة الأوروبية حقوقها إلا بعد الحرب الكبرى حينما شاركت المرأة الرجل أعمال الحرب ، وحينما رأى الرجل أن المرأة تستطيع أن

تكون عاملاً فعالاً في حياة الجماعة . كذلك في مصر فقد ظلت البيئة المصرية مزوّرة عن المرأة كل الازورار حتى قامت مصر بالحركة الوطنية سنة ١٩١٩ . وهنا حدث أمر لم يكن في حسابان الكثيرين ، فقد اشتركت المرأة الوطنية التي قامت في طول البلاد وعرضها . وأصبحت لجان النساء تُكوّن إلى جانب لجان الرجال ، بل لقد تعرّض النساء لما تعرّض له الرجال من العنت والتضييق . وكذلك كان للتقدم السياسي الذي بلغته مصر وكان للمرأة نفسها بعد قاسم أمين أكبر الأثر في تحرير نفسها .

وجاهد الاتحاد النسائي في أن يبلغ ما ذهب إليه قاسم أمين . وكان للاتحاد النسائي مطالب وكان له منهج وضع على أساس ما كتبه قاسم أمين . ووفق الاتحاد النسائي إلى إشراك الفتاة مع الفتى في كل أنواع التعليم ، وإلى تقرير السادسة عشرة سنناً أدنى لزواج البنت ، وإلى إصلاح بعض نظم الأحوال الشخصية ووضع حد لفوضى الطلاق . وإلى إطالة مدى حضانة الأم للطفل . ولكن بقي أننا ما زلنا إلى هذه الساعة نشعر بأن الطريق ما زال وعراً ، وأننا لم نستقر بعد على حال فيما يختص بالنساء في حياتنا العامة . فشطّر من نساء مصر لا زلن في حياة الجهل والفاقة التي عاشتها أمهاتهن في مبدأ القرن التاسع عشر ، وشطّر آخر لا زلن متحجبات يعزلن حياة الرجال ،

وشطر آخر قد خرجن إلى الحياة العامة يضطربن في الأسواق ، وشطر آخر قد تبرجن وقلدن حياة باريس التي سخط عليها قاسم أمين .

ثم إن الحركة النسائية في أوروبا قد سبقت الحركة النسائية في مصر أشواطاً بعيدة . كسبت المرأة هناك حقوقها فكان في إنجلترا وأمريكا رد فعل لهذه الحركات السياسية . وآمنت المرأة هناك اليوم بالمنزل ، وأصبح الإصلاح الاجتماعى ينطوى على إصلاح الأسر الفقيرة المعذمة أولاً . وقد تفتحت أعين المصلحين والمصلحات هناك على أن الحركات السياسية النسائية لم تكن إلا موجات تؤثر في السطح لكنها لا تنفذ إلى الصميم . وسيعنى المصلحون بعد هذه الحرب بالأسر الفقيرة ، وستكون المرأة الفقيرة صاحبة الأسرة الكبيرة هى أساس كل إصلاح اجتماعى في المستقبل .

تلك آثار قاسم أمين ! إنها مشا كل حاول أن يحلها ولكنها لم تنحل بعد . على أن الرجل كان القوة الدافعة التى أيقظت الجيل الماضى لحل كل تلك المشاكل . لقد كان الأول فى كل شئ : أول من دعا إلى تطور اللغة وإلى إلغاء الوقف أو تنظيمه وإلى إنشاء الجامعة المصرية وإلى التربية .

كما كان أول من دعا إلى تحرير المرأة دعوة شاملة، وكان يمثل خير ما كان في
جيله من هذه الأفكار . وقد كانت حياته كما قلنا وحدة بدأت حينما ولد في
أول ديسمبر سنة ١٨٦٣ لكنها لم تنته بموته في ٢٣ من إبريل سنة ١٩٠٨ .
ذلك بأن حياته كانت ملتقى للأفكار والمبادئ . وقد يموت الإنسان ،
وقد يفنى الجسد ، وقد يصبح هشيما تذروه الرياح . أما الأفكار والمبادئ
فهي حية لا تموت .



اعلام الاسلام

- عمرو بن العاص لمرستاد عباسي محمود العقاد صدر في مارس سنة ١٩٤٤
- منصور الأندلس » على أدهم » » ابريل
- بشار بن برد » ابراهيم عبد القادر المازني » » مايو
- المعز لدين الله » ابراهيم جهل بك » » يونيه
- محمد عبده للمركتور عثمان أمين » » يوليه
- أبو نواس لمرستاد عبد الرحمن صديقي » » أغسطس
- مهدي الله » توفيق احمد البكري » » سبتمبر
- محمد علي الكبير » تقيي غريبال بك » » اكتوبر
- القارابي لمرستاد عباسي محمود » » نوفمبر
- قاسم أمين » احمد فهاكي » » ديسمبر

الكتاب الحادي عشر

ابن رشد الفيلسوف : لمرستاد محمد يوسف موسى

يصدر في يناير سنة ١٩٤٥

دائرة المعارف الإسلامية

أوفى مرجع عن الحضارة الإسلامية

تصدرها

لجنة ترصمها دائرة المعارف الإسلامية

أحمد السنتاوى . عبد الحميد بونس

أبراهيم زكى هورسيد . حافظ مهول

تم إصدار المجلدات الخمسة الأولى

وصدر العدد السادس من المجلد السادس

الاشتراك السنوى عن ستة أعداد خمسون قرشاً

إدارة اللجنة

١٤ شارع حسن الأكبر مصر . ت ٤١٣٧٥

COLUMBIA UNIVERSITY LIBRARY

ated

893.7112

K526

893.7112

K526

Khaki

Qasim Amin.

SEP 24 1949

BINDER
R-106

NOV 15 1949

COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE



CU07839030